

أعلام العرب

١١٩

الشيخ الأكبر
محيي الدين بن العربي
سلطان العارفين

تأليف: عبد الحفيظ فرغلي على القرني



دار النشر: دار الفكر

اعلام العرب

(١١٩)

الشيخ الأكبر
محيي الدين بن العربي
سلطان العارفين

تأليف: عبد الحفيظ فرغلي على القرفي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى : البير جورجى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا »

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، والصلاة والسلام
على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
وبعد ..

فهذه سيرة كريمة لرجل من رجال التصوف الأفاضل ، الذين
تركوا ثروة ضخمة من الآثار والآراء والأذواق ، ضمنها عددا لا يكاد
يحصى من كتبه التي عدت عليها عوادي الزمان ، فما ضاع يعد
أضعافا مضاعفة لما بقي منها .

هي سيرة الصوفي المرسى العظيم « محيي الدين بن العربي »
الذي عاش في الفترة التي تجمع بين منتصف القرنين السادس
والسابع الهجريين ، هذه الفترة التي كانت زاخرة بالأدب
والتصوف ، في بيئة من أخصب بلاد العالم الإسلامي رقة وذوقا
وأدبا وتصوفا ، هي بيئة الأندلس ، التي على رباها نشأ عاقل
التصوف العظيم ، ثم خطت قدماء تدرع البلاد شرقا وغربا ،
بحثا عن المعرفة ، وارتياذا للحكمة .

هي سيرة « ابن عربي » الذي سطع نجمه في أفق الثقافة
الإسلامية الصوفية حيا وميتا ، ووجد من الأنصار والخصوم من

يناصرون ويناثون ، وشغل بآرائه وأفكاره العقول والأذهان ، واثار
ثائرة قوم وأعجاب آخرين ، وظلت كتبه الى ذلك الوقت منبعاً فياضاً
وكنزاً دفيناً يهرع اليه طلاب المعرفة ورواد الثقافة وعشاق الروح
ومحبو الفلسفة وجامعو الحكمة •

هى سيرة ذلك البطل الذى اطلق عليه عارفو فضله لقبين لهما
دلالتهما العظيمة •

اما اللقب الاول فهو « الشيخ الاكبر » وهذا اللقب لم يطلق
عليه الا بعد ان اجتمعت له اصول الرياسة ومقومات القيادة
الروحانية ، وتخرج على يديه الكثير من تلاميذه الذين كانوا يجتمعون
حوله بالمئات فى كل مكان يحل فيه ، يتحلقون حوله ويستمعون الى
محاضراته ، وينصتون الى آرائه واذواقه فى شعره ونثره •
فيجدون فى ذلك بلسماً شافياً لجراحهم ، ويعثا قويا لموات نفوسهم ،
وحفزا صادقا لهممهم ، وارواء لظما ارواحهم • وكانوا هم عند
حسن ظنه بما افادوا من تعاليمه ، وساروا على طريقه واستجابوا
لصادق نصحه ، فشفت نفوسهم ، واطمانت قلوبهم ، وارتوت
ارواحهم وانطلقوا يحلقون فى فضاء الروح •

ولقد وضع « الشيخ الاكبر » مناهج تتناول الصوفى فى جميع
مراحل طريقه من لدن اتباع الرغبة فى نفسه ، ثم مضيه مريداً
سالكا حتى تتكشف امامه الطريق ، فيتمكن من الوصول الى غايته
بنجاح •

كما وضع مناهج للشيخ أنفسهم يستأنسون بها فى ارشادهم ،
كما يستأنس بها مريدوهم حتى يعرفوا القائد الحق فيحترمونه له
قديوته ويحفظون له حقه وبذلك يزهر غرسه ويدنو ثمره •

وكان هو نفسه - سلوكا وتصرفا وقولا وعملا وادابا وأخلاقا -
فى الذروة العليا من الكمال الانسانى الذى بلغ به مراتب اهل

الفضل ، وجعل شيوخ عصره يجلونه ويكبرونه ويعترفون له بالمكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة •

من أجل ذلك كله أطلق عليه لقب « الشيخ الأكبر » •

أما اللقب الثانى فهو « سلطان العارفين » وهو لقب يكاد يكون متلازما مع اللقب السابق ، فلم يستحق ابن عربى لقب « الشيخ الأكبر » الا بعد ان تبوأ عرش المعرفة ، وأدرك من الأسرار ما عز على غيره ، واستطاع ان يشير الى حقائق تاهت فى الطريق اليها العقول ، وتفرقت العزائم ، وأدلى بمعان رائعة وحكم باللغة ، تدل على رسوخ قدمه وعلو كعبه وسعة معرفته •

ولقد شهد بذلك أعظم الصوفيين فى عصره ، ومنهم أبو مدين فى المغرب والسهورردى فى بغداد ، وابن الفارض فى مصر •

أطلق عليه أبو مدين هذا اللقب « سلطان العارفين » •

وقال عنه السهورردى : انه بحر الحقائق •

وأدرك ابن الفارض روعة الفتوحات المكية التى كتبها ابن عربى فقال : انها خير شرح لتأنيته المشهورة « نظم السلوك » •

وهذه تقارير ان دلت على شىء فانما تدل على ما وصل اليه الشيخ الأكبر من تالق ومقدرة •

ومن أجل ذلك أطلق عليه « سلطان العارفين » وهو جدير بهذا اللقب ، لأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى هذا الطريق الصوفى الخاص بالعقبات والمفاوز والمتاهات الا وأدلى فيها ببيان واف ، وعبارات رائعة نظما ونثرا • واتسعت معرفته فشملت غير العلوم الصوفية براعة ودقة وفهما وأداء •

هذه سيرة الشيخ الأكبر محبى الدين بن عربى سلطان العارفين ، التى نرجو ان تكون حافزا لنا ، ومنارا نهتدى به فى حياتنا الجديدة • والله خير موفق ومعين •

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف
المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله مصطفىه من خلقه ومجتباه من
عباده وعلى آله وصحابه ومن سار على نهجه واتبع طريقته واهتدى
بهديه الى يوم الدين ،

ويعد ٠٠

فنحن بين يدي الطبعة الثانية من كتاب القطب الرباني سيدي
محيي الدين بن العربي - رضى الله عنه - وقد صدرت الطبعة الأولى
منه في سبتمبر عام ١٩٦٨ م في سلسلة أعلام العرب ٠

والامام محيي الدين بن العربي جدير بأن تكتب عنه آلاف
الصفحات وتصدر عنه مئات الكتب والمجلدات ، فقد شغلت حياته
وأفكاره ومؤلفاته الناس عبر القرون من لدن القرن السابع الهجرى
حتى هذا القرن الخامس عشر الذى نعيش فيه ، وأغلب الظن أنه
سيظل يشغل الناس الى مالا نهاية ، فانه من الذين كتب الله لهم
الخلود بسيرهم الزكية وأعمالهم المرضية ٠

ولقد شهدنا في مصر في نهاية القرن الرابع عشر لوتنا من هذه
الشواغل التى اثارها حياة الشيخ الأكبر ومؤلفاته ، ظهر فيما

فوجدنا به من تدخل سافر يحاول أن يحجر على حرية الفكر ويحول بين الناس والمعرفة ويقضى على أكبر مؤلفات ابن عربى « الفتوحات المكية » ذلك أن الهيئة المصرية العامة للكتاب قد نشرت منه أجزاء في طبعة أنيقة محققة تحقيقا دقيقا بقلم الدكتور عثمان يحيى ، ومراجعة وتصدير الدكتور ابراهيم مذكور وكلاهما علم من أعلام الفكر والعلم والثقافة ، وبرعاية المجلس الأعلى للفنون والآداب الاجتماعية في مصر ، وبالتعاون مع معهد الدراسات العليا في السوربون ، ويعنى ذلك كله الاعتراف بأهمية كتاب الفتوحات المكية وبأنه يمثل خلاصة المعارف الصوفية والفكرية في الاسلام وقد نبه الدكتور المحقق الى ذلك في صدر الكتاب .

فبعد أن أصدرت الهيئة من هذا السفر الجليل عدة أجزاء إذا بنا نسمع أصواتا تطالب بإيقاف صدور الكتاب وجمع ما صدر منه من الأسواق ، متذرة بحجة واهية هي أن طبع هذا الكتاب يعد ترقا علميا وغيره من أمهات الكتب السليمة في موضوعها ومنطقها أجدى بالرعاية والاهتمام وبأن بعض العلماء السلفيين أداتوا كتب ابن عربى فمن أجل هذه الادانة يجب أن يوقف تراث ابن عربى .

ولقد ثارت ضجة صاخبة حول هذا الأمر شاركت الاقلام الفكرية والأدبية فيها ، ومما يحمد لكثير من هذه الاقلام انها وقفت وقفة موضوعية مدافعة عن هذا الامام الكبير وسفره الجليل ، منوهة بضرورة حرية الفكر لأن هذه الحرية هي التي تمكن للعقل من أن يأخذ حقه الكامل في البحث والدراسة والاستفادة ، ولن يقهر الفكر بالحجر أبدا مهما حاول المتعصبون أن يفرضوا سلطانهم ويحولوا بين الانسان وحقه في التزود من المعرفة الانسانية والدينية ، ومن أطرف ما جاء في ذلك قول بعض الأدباء المفكرين : (١) ومن العجيب حقا أن ابن عربى قد تعرض للاغتتيال فى مصر منذ سبعة

(١) هو الاستاذ اتيس منصور فى الامرام ١٩٧٩/٢/٤ .

قرون فهل نهنيء انفسنا نحن المصريين على هذا الاصرار على قتل ابن عربي حيا او ميتا ؟ واذا كانت هناك نصيحة لأحد في هذا الموقف الاثيم فأننى اقترح ان يشتري كتابا للامام السيوطى فى دفاعه عن هذا الفيلسوف المتصوف ، الكتاب بعنوان تنبيه الغيبى فى تبرئة ابن عربي .

وكتبت حينذاك ردا على قرار المصادرة لم يتح له ان ينشر قلت فيه بعنوان « كل ممنوع مرغوب » : كان لى شرف الكتابة عن الشيخ الأكبر فى سلسلة اعلام العرب ، وقد دفعنى الى الكتابة عنه منذ أكثر من عشر سنوات ما دفع غيرى من الاعجاب الشديد بشخصية ابن عربي الفريدة بين رجال التصوف الذين سجلت عنهم أروع الصفحات ، وانفرد هو من بين هؤلاء بلقيين لم يمنحهما اعتباطا هما (الشيخ الأكبر ، وسلطان العارفين) وقلت : ويكفى ابن عربي فخرا أن يتوفر على دراسته ودراسة آثاره المئات من الغربيين والمستشرقين الذين راعهم هذا النتاج الضخم من مؤلفاته الخاصة بالدرر الفريدة والتي انارت الطريق امام كثير منهم لاعتناق الاسلام ، ومن بين الذين اعتلوا بدراسته المستشرق الأسباني اسين بلاثيوس الذى قال عن الفتوحات :

ان كتاب الفتوحات يعد كنزا دفيننا ، والمستشرق الألمانى بروكلمان الذى اورد ثبنا كاملا لمؤلفاته فى موسوعته الكبرى : تاريخ الأدب العربى .

وفى دار الكتب المصرية عام ١٩٦٨ التقيت فى قاعة المخطوطات بعالم المانى معنى بدراسة ابن عربي وساعدنى فى ترجمة هذا الثبت الذى ضمته كتابى عن ابن عربي ولم يكن الجزء الذى يتضمن هذا الثبت مترجما الى العربية وكان التقاى بهذا العالم مصادفة اعتبرتها توفيقا من الله ونفحة من نفحات ابن عربي وعلامة من علامات التيسير فى اتمام هذا البحث بحمد الله

والآن فلنتساءل : هل مصادرة كتاب تمنع تداوله ؟ انهم يقولون كل ممنوع مرغوب ، وبناء على هذا القول فقد أغرى الناس بسبب مصادرة كتاب «الفتوحات» بالاقبال على فكر ابن عربي وتتبع مصدره والاطلاع عليها في اى مكان ، ولئن صودر الكتاب في مصر فهل صودر في مشارق الأرض ومغاربها في وقت تقاربت فيه الأماكن وقصرت المسافات وتيسرت وسائل الاتصال والانتقال حتى أصبح من الممكن الوصول الى اى هدف بإيسر جهد وأقصر وقت ؟ ان مصادرة الفكر هي اقصى ما تبتلى به الأمم في عصورها وليس هناك أمة مستنيرة تخشى الكلمة وانما عليها أن تقارعها بالحجة والبرهان وهذا أساس من أسس الإسلام الذى دعا الى مجادلة غير المسلمين بالتى هي أحسن ، ولم يدع الى مصادرة حججهم ، فما باله اذا كانت هذه الكلمة لا تبطن كفرا ولا تظهر نكرا ، ولكنها ربما تحتاج فقط الى شرح وتوضيح وبيان لأن صاحبها قصد الى غموضها صونا للأسرار ؟

ليس من العجيب أن يثور المفكرون الأحرار على قرار مصادرة كتاب الفتوحات سواء منهم من يقرأ التصوف ومن لم يقرأه لأن المحرمات الفكرية كما يقول بعض الأدباء أخطر ما يواجه حياتنا الفكرية والثقافية ، فاذا ما صودر كتاب بلغ من العمر مئات السنين وطبعت منه آلاف النسخ وترجم الى اللغات العالمية فماذا نحن فاعلون اذا حاول واحد منا أن يستخدم عقله أو أن يسلك مسلك الاجتهاد ؟

لقد اشتركت عشرات الأقلام الاصيلية الحرة في مناقشة هذه القضية ، وكان من العجيب حقاً ألا تفعل ذلك ، حتى أجبرت هذا القرار الجائر على التراجع واستأنفت الهيئة اصدار الأجزاء الباقية من هذا الكتاب الذى لم تمتد قائمة حتى الآن لتطاول صاحبه في نكراء

ومعرفته وصفاء روحه ، والآمل كبير ان شاء الله فى أن نرى بقية
أجزائه •

وسيجد القارئ الكريم فى هذا الكتاب جهدا متواضعا فى انقاء
الضمير حول هذا الرجل العظيم ومؤلفه الخطير «الفتوحات» المكية
معتزفا بأنه جهد المقل ومحاولة العاجز ، وحسبى من ذلك أن يجعل
الله هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن ينير به الطريق الى معرفته
أنه نعم المولى ونعم النصير •

المؤلف

البيئة والعصر

كانت الأندلس هي الموطن الأصلي لابن عربي ، ففيها ولد وعاش ما يقرب من أربعين سنة من حياته العامرة الزاخرة الخصبة .

والأندلس اسم أطلقه المسلمون على شبه جزيرة « إيبيريا » التي كانت اقليما رومانيا مزهرا (١) .

وكان لموقع الأندلس الجغرافي الممتاز اثر كبير في خصوصية تربتها واعتدال جوها وحسن مناخها ، مما كان سببا في صحة اجسام أهلها ، وقوة جنائهم ، وسعة ادراكهم وخصوصية خيالهم وسرعة خاطرهم وشدة ذكائهم ، مما دعا « لسان الدين الخطيب » احد وزرائها الأعلام الى وصفها بقوله : « خص الله تعالى بلاد الأندلس من الريع ، وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وقراءة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآتية ، وكثرة السلاح وصحة الهواء ، وايضاخض الوان الانسان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة

(١) دائرة معارف الشعب مادة « أندلس » .

الطبائع ، ونفوذ الادراك ، واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها « (١) .

ويقول أبو عامر السلمي عن إقليم الأندلس : « هو خير الأقاليم وأعدلها هواء وتربا ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا ، وهو أوسط الأقاليم وخير الأمور أوسطها » (٢) .

وكذلك قول أبي عبيد البكري عن الأندلس : « الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكاؤها ، أهوازية في عظم جبايتها . صينية في جواهر معادنها ، عدنية في مواقع سواحلها » .

تلك هي الأندلس التي افتتحها المسلمون في سنة ٩٢ هـ بقيادة « طارق بن زياد » وظلت تحت حكم الاسلام زهاء ثمانية قرون ، ازدهرت في خلالها الحضارة الاسلامية ازدهارا عظيما ، وكانت مركز اشعاع أمد العالم الغربي بالعلم والتقدم ، وأثار أمامه الطريق الى رسم مستقبل علمي مجيد ، وأنطلقت من آفاق الأندلس اشعاعات مضيئة في شتى العلوم والمعارف والفنون ، مما جعلها تنافس شقيقاتها في المشرق علما وثقافة وتألقا وازدهارا .

ونبغ في ربوعها أعلام أفاضل دانث لهم الحياة ، وأحنت أمامهم قامتها الأيام أجلا لا واعزازا .

واشتهرت في الأندلس مدن كانت لها سوابق ومزايا في تلك الأمور المتقدمة .

(١) نفع الطيب - ١ ص ٢٥٤ مطبوعات دار المأمون .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

من بين هذه المدن « مرسية » •

وتقع « مرسية » على وادى شقورة قريباً مصبه ، وهو
قسيم نهر الوادى الجديد الكبير •

وهذه المدينة كانت حاضرة شرق الأندلس فى العصر
الاسلامى ، وهى مدينة اسلامية محدثة ، أسسها الأمير
عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦ هـ •

وازدهرت « مرسية » فى عصر الخلافة وعمرت ، وأصبحت من
حواضر الأندلس الكبرى ، حتى سقطت الخلافة الأموية بقرطبة
وتمزقت وحدة الأندلس •

وتعرضت « مرسية » لحكومات متعاقبة على اثر ذلك ،
حتى آلت الى المرابطين ثم الموحدين ثم استولى عليها ملك
قشتالة فى سنة ٦٤١ هـ •

وكانت « مرسية » بلد العلم والأدب ، وقد وفد من علمائها
عدد كبير الى المشرق ، وعلى الأخص مصر ، ومن بينهم أبو عبد الله
محمد بن يوسف المرسى المتخصص فى الفقه والكلام ، ومنهم
الشيخ الزاهد أبو العباس المرسى تلميذ الشاذلى (١) •

ومنهم الفقيه الفصيح الجليل العالم الورع عبد الحق بن
سبعين الذى ذاع صيته وكثر أشياعه وتعددت مصنفاته (٢) •

ومن هذه المدن « أشبيلية » •

وتقع هذه المدينة على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير قرب
مصبه ، فى خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحرياً فى

(١) راجع دائرة معارف الشعب مادة اندلس •

(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٨٨ •

جنوب إسبانيا ، ويتميز هذا النهر بشدة صعود الماء فيه ، حتى
انه ليصل الى اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر ، وفيه يقول
الشاعر ابن سقر :

شق النسيم عليه جيب قميصه

فانساب في شطيه يطلب ناره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها

هزا فضم من الحياء ازاره(١)

وتتوسط « أشبيلية » سهلا فسيحا ، وكانت زمن المسلمين
مدينة عامرة ، بها أسواق قائمة وتجارات رائجة ، وتمتعت
- ولا سيما في عهد بنى أمية - بازدهار شامل في حياتها ، وأقام
فيها الأمراء المنشآت العظيمة ، وشهدت على تعاقب الولاة تقدما
لم تشهده من قبل لا في عصر الرومان ، ولا في عصر القوط ،
ووصل بها الأمر الى ان أصبحت أعظم مدن إسبانيا الاسلامية
بعد ان تخلت لها قرطبة عن الزعامة .

وقد بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع « أشبيلية »
وما كانت تنفرد به دون غيرها من الحواضر الأندلسية ، وكانت
- على حد تعبيرهم - عروس بلاد الأندلس وقاعدتها ، وبرع في
ظلالها كثير من الأدباء والعلماء والفنانين(٢) .

تلك هي الأندلس ، وفي هاتين المدينتين منها ولد « الشيخ
الأكبر » وعاش الشطر الأول من حياته ، في تلك الظلال الباسقة
من العلم والعرفان .

وكانت البيئة العربية في ذلك الوقت الذي نشأ فيه « سلطان

(١) المرجع السابق ح ١ ص ٣٠٨ .

(٢) دائرة معارف الشعب مادة « أندلس » .

العارفين « بيئة مهيأة خصبة لازدهار العلوم والمعارف ، وادى التنافس الشديد بين الدولتين العربيتين الكبيرتين في المشرق والمغرب الى ظهور كثير من العلماء المبرزين في شتى انواع العلم والمعرفة ، وبخاصة في التصوف الذى امتدت فروعه وزكت اصوله واتسعت معارفه ، ووصل الى اقصى ما يمكن أن يصل اليه من نمو وازدهار ، ودان به كثير من العلماء الأجلاء الذين رسخت اقدامهم ومضوا فى طريقهم ينشرون الهدى والنور من حولهم .

كان عصر « ابن عربى » عصرا ذهبيا في التصوف ، وشهد مشرق كثير من فحوله من أمثال السهروردى البغدادي ، والشاذلى ، والدسوقي ، والبدوى ، وعمر بن الفارض ، وجلال الدين الرومى ، وعفيف الدين التلمسانى ، وأبى الحسن الصباغ ، وأبى العباس المرسى وأبى العباس الخزرجى الأندلسى ، وعبد الحق بن سبعين ، وأبى مدين المغربي ، وأبى الحجاج الأقصرى ، وكثير غيرهم عمرت بهم البلاد الاسلامية في شرقها وغربها .

وقد نضج التصوف نضجا كبيرا ، وخطا على يد أربابه خطوات فسيحا ، وظهرت فيه الأنواق المختلفة التى تمثل اتجاهات الصوفية في ذلك العصر .

وكان ذلك ثمرة من ثمار النضج الروحى والفكرى الذى ظهر في خلال ذلك العصر ، والذى أدت اليه حركة المد العلمية الواسعة التى شملت جميع أجزاء الدولة الاسلامية المتعددة الأطراف « وكان حظ الأندلس من العلوم والآداب كبيرا للغاية ، فتقدمت تقدما ملموسا منذ العهد الأموى ، واشتغل منهم كثيرون

في الطب والكيمياء والهندسة والعلوم الرياضية ، ونبغوا في الفلسفة والتصوف والنحو والشعر» (١) .

ويوجد مئات من العلماء الأعلام الذين كان لهم أثر مرموق في الرقي الفكري والعقلي والروحي ، ذكرتهم كتب التاريخ والطبقات ، وعلى أيديهم تخرج الآلاف من الطلاب الذين زخرت بهم المدارس والجامعات ، وامتألت بهم المدن ، وامتدت بهم آمال الأمة العربية والإسلامية ، وارتبطت بهم أوصالها ، حيث اتسعت حركة الهجرة بين شرقها وغربها .

وقد ترجم « المقرئ » في كتابه نفح الطيب لكثير من هؤلاء الأعلام الذين هاجروا من الأندلس إلى المشرق ، ومن بينهم الكثير من الصوفية .

وعلى قدر ما كانت ترفل فيه الأندلس من حلال الترف والحضارة والنعمة ، مما أدى إلى انصراف كثير من المترفين إلى المتعة واللذة واستغراقهم في اللهو واللعب كان هناك التصوف الذي لعب دورا كبيرا في حياة بعض الأفراد ، ووقف يلوح بعصاه ليهذب من ضراوة النفوس ويكبح من جماح الشهوات .

وكان التصوف قد تطور في أطواره المختلفة التي نقلته من مجرد نزعَة تقشفية إلى التغلغل في صميم الكون والنفس الإنسانية واكتشاف أعماق الحياة ، وأصبح التصوف في هذا العصر يمثل ناحيتين هامتين ، أحدهما الجانب العملي ، ويقصد به ضروب المجاهدة والمكابدة وما تدعوان إليه من تهذيب خلقي ، وما تكلفانه من سلوك ألوان خاصة في الرياضة الروحية كالصوم والعزلة والسير والصمت والفكر والسياسة والذكر وغير ذلك .

(١) دائرة معارف الشعب مادة أندلس ص ١٩٧ .

وثانيتها الجانب النظرى الذى تثمره الناحية العملية من معرفة
لواجب الوجود وتعبير عما يشاهده العارف وعما يحس به فى
أثناء سيره فى طريقه من إحاسيس القرب أو المشاهدة أو الشوق
أو الأنىس أو الوجد أو غير ذلك .

واختلفت تعبيرات الصوفية بين هاتين الناحيتين اختلافًا
أثار كثيرا من النقاش والجدال ، بين مؤيد ومعارض ومدافع
ومهاجم ، وكونت هذه الحالة حركة فكرية كان لزاما أن تشغل
عقول العلماء والمفكرين .

فى هذه الظروف نشأ ابن عربى الشيخ الأكبر ، الذى أثار
أكبر ضجة فى تاريخ التصوف ، وترك من خلفه ثروة ضخمة من
المعارف الصوفية ، وكان لأرائه الجريئة صدى عميق ظل الى
وقت طويل يثير ثائرة المعارضين وأعجاب المؤيدين .

نسبه ومولده ونشأته

أسرته :

ولد ابن عريى فى أسرة عريقة تعتز بأصلها العربى السامق .
فهو من نسل حاتم بن عبد الله الطائى المتوفى سنة ٥٧٨ م ، وهو
الجواد الفارس المشهور بكرم الأخلاق ، وكان مظفرا ، اذا قاتل
غلب ، واذا أسر أطلق ، واذا غنم أعطى ، واذا سئل أجاب ،
ضرب المثل بجوده حتى لقد رويت عنه الأخبار ، ونسجت حوله
القصص فى الآداب العربية والفارسية والتركية والهندوستانية ،
وله ديوان شعر يدور حول الجود والخلق الكريم (١) .

وورث أولاده وأحفاده هذه الصفات منه ، واعتزوا بها
وحرصوا عليها ، وكانت مثار فخر لهم ، ولم ينس ابن عريى - وهو
شاعر مجيد - التغنى بهذه الصفات الكريمة التى ورثه اياها نسبه
العظيم ، فقال فى إحدى قصائده :

إذا قل سيفى لم تغفل عزائى
فلى عزمات شاحذات صوارمى

(١) نفع الطبيب ج ٧ ص ١٨٨ .

والا قسـل عـنا القـنا هل وقـت لـنا
واسـيافـنا يـوما بـقـدر عزائـمـي
لـنا الجـود ، اذ كـنا سـلـالة حـاتم
وما زال مـن قـلدته في تمـائـمـي
وقال في قصيدة أخرى :

لـنا هـمة ان الثـريا لدونـها
نـعم ، ولـنا فـوق السـمـاكـين مـنـزل
تـقـدمـت سـبـقـا في المـكـارم والعـلا
وفي كل ما يـنـكى العـدـاء انا اول
ولم الف صـمـصـاما بـقـدر عزائـمـي
ولو جـمـعـوا الـأسـيـاف عـزـمـي اول
كـذلك جـودـي لا يـفـي الغـيـث والثـرى
اذا كان اـمـوالـا به حـين اـبـذل
انا العـربـي الصائـمـي اخـو النـدى
لـنا في العـلا المـجـد القـديـم المـؤثـل •

ولأسرة الطائي سابقة في الاسلام جديرة بالتسجيل ، وهي
ان عديا الطائي بن حاتم وكان يعرف بالجواد ابن الجواد ، وقد
على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة سبع ، وأسلم
وحسن اسلامه ، ونزع له النبي صلى الله عليه وسلم وسادة
كانت تحته فآلقاها له حتى جلس عليها ، ولما ارتدت العرب ثبت
عدي وقومه على الاسلام ، وكان اول صدقة قدم بها على ابي بكر
صدقة عدي وقومه ، وشهد فتح المدائن ، وشهد مع سيدنا على
حروبه ، وفقت عينه يوم الجمل وتوفي سنة ٦٨ هـ عن نحو
١٢٠ سنة (١) •

(١) نفع الطيب ح ٧ ص ٩٢ هامش •

نفسه :

ونسب ابن عربى كما ورد فى أكثر من مرجع هو : أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى الطائى الأندلسى^(١) . من ولد عبد الله بن حاتم أخى عدى بن حاتم الفقيه الصوفى المشهور الظاهرى^(٢) .

وتضيف دائرة المعارف الاسلامية أنه كان يعرف فى الأندلس « بابن سراقه » ولعلها استندت فى ذلك الى ما جاء فى نفح الطيب نقلا عن كتاب « عنوان الدراية فى تاريخ بجاية » ولكن الواقع أن الذى يعرف بابن سراقه ليس هو الشيخ الأكبر ، ولكنه الامام محيى الدين أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم الأنصارى ، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، ولد سنة ٥٩٢ هـ وله مؤلفات فى التصوف ، وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة العلم ، وتوفى سنة ٦٢٢ هـ^(٣) ، وكان أحد الملازمين لدروس سىدى أبى الحسن الشاذلى فى مصر^(٤) . وقد ترجم له صاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » وذكر أنه : أبو بكر محمد بن أبى عبد الله محمد بن سراقه ، وأنشد له شعرا^(٥) .

وكان الشيخ الأكبر يطلق عليه فى الأندلس : « ابن العربى » بالآلف واللام ، أما فى المشرق فكانوا يطلقون عليه « ابن عربى »

(١) دائرة المعارف الاسلامية - دائرة معارف البستانى - شذرات الذهب

ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ٩٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٩ .

(٤) أبو الحسن الشاذلى لعبد الطيم محمود ص ٤٣

(٥) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٣٨٨ .

من غير أداة التعريف • تمييزًا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى
المعافرى ، قاضى قضاة « أشـبـيلية » وهو أحد علماء الأندلس
المشهورين الراحلين الى المشرق ، ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة ،
وتوفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة • قبل مولد الشيخ الأكبر
بسبعة عشر عاما تقريبا •

مولده :

وقد اجمعت المصادر على أن ابن عربى الشيخ الأكبر ولد
يوم الاثنين سابع عشر من رمضان المعظم سنة ستين وخمسمائة
هجـرية ، فى مدينة « مرسية » بالأندلس ، من أبوين كريمى المحتد ،
وفى ظل أسرة عريقة غنية مشهورة بالتقوى والصلاح •

أما أبوه على بن محمد فقد كان رجلا صالحا مواظبا على
تلاوة القرآن الكريم ، وله مع سورة « يس » صحيفة خاصة ،
ويبدو أنه كان مباركا ، بدليل أنه قد تنبأ باليوم الذى سيموت
فيه فكان كما تنبأ ، ويحدث ابن عربى عن الكرامات التى صاحبته
أباه يوم وفاته وعن الاشراق الذى كسا وجهه وغشى جسمه حتى
اضياء ما حوله فيقول فى كتاب « الفتوحات المكية » : « وكان
قبل أن يموت بخمسة عشر يوما أخبرنى بموته ، وأنه يموت يوم
الأربعاء ، وكذلك كان ، فلما كان يوم موته ، وكان مريضا شديدا المرض
استوى قاعدا غير مستند ، وقال لى : يا ولدى ، اليوم يكون
الرحيل واللقاء فقلت : كتب الله سلامتك فى سفرك هذا وبارك لك
فى لقائك ، ففرح بذلك ، وقال لى : جزاك الله يا ولدى عنى خيرا ،
فكل ما كنت أسمعك تقوله ولا أعرفه ، وربما كنت أنكر بعضه هوذا
أنا أشهده ، ثم ظهرت عاى جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده
من غير سوء ، لها نور يتلألأ ، فشعر بها الوالد ، ثم أن تلك اللمعة
انتشرت على وجهه الى أن عمت بدنه ، فقبلت يده وودعته

وخرجت من عنده وقلت له : انا اسير الى المسجد الجامع الى ان يأتيني نعيك ، فقال لى : رح ولا تترك أحدا يدخل على ، وجمع اهله وبناته ، فلما جاء الظهر جاءنى نعيه فجئت اليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت ، وعلى تلك الحالة دفناه ، وكان له مشهد عظيم « (١) » .

وأما أمه فاسمها «نور» وهى امرأة صالحة كانت تحثه دائما على ارتياد طريق الصلاح ، وإتباع سبيل الهدى . ولم تجزع حينما ترك ابنها الدنيا وسلك طريق الزهادة والتقوى . وحينما ألزم نفسه خدمة العارفة بالله « فاطمة بنت ابن المثنى القرطبى » بأشبيلية كانت أمه تزوره عندها ، فتقول لها فاطمة : يا نور هذا ولدى وهو أبوك ، قبريه ولا تعقيه . فلا تجد فى نفسها غضاضة مما تسمع ، وكانت تتلقاه بقبول حسن .

أما أخواله فمنهم الأعلام الذين سلكوا طريق التصوف ، وبلغوا منه مبلغا عظيما ، وقد كان أحدهم وهو « يحيى بن يغان » ملكا على مدينة تلمسان وكان فى زمنه رجل فقيه زاهد متبتل ، قد انقطع فى مسجد يعبد الله فيه .

وبينما كان هذا العابد سائرا فى طريقه بين مدينتى تلمسان وأقادير ، إذ لقيه « يحيى بن يغان » وقد أحاط به خدمه وحشمه . فسأل عن هذا الزاهد ، فقالوا له : هو أبو عبد الله التونسي عابد وقته ، فوقف بجواره ، وسلم على الشيخ ، فرد عليه الشيخ السلام ، ثم قال الملك - وكان يرتدى ثيابا فاخرة - للشيخ : يا شيخ ، هل يجوز لى أن أصلى فى هذه الملابس التى ارتديها ؟ .

فضحك الشيخ ، فقال له الملك : مم تضحك ؟

(١) ابن عربى حياته وملعبه ترجمة عبد الرحمن بدوى .

فأجاب الشيخ : من سخف عقلك وجهلك بنفسك ، مالك تشبيه عندى الا بالكلب ، يتمرغ فى دم الجيفة وأكلها وقذارتها ، فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول ، وأنت وعاء مليء حراما وتسأل عن الثياب ، ومظالم العباد فى عنقك !!

فبكى الملك « يحيى بن يغان » خال ابن عربى ، وخرج عن ملكه من حينه ، ولزم خدمة الشيخ ، فالزمه الشيخ بأن يحتطب ، فكان يحمل الحطب على رأسه ويمضى به الى السوق ليبيعه ، فيقتات منه ويتصدق بالباقي ، وظل على ذلك حتى مات ودفن بجوار الشيخ .

وكان الناس اذا جاءوا يقصدون الشيخ للتبرك ، ويطلبون منه الدعاء يقول لهم : التمسوا الدعاء من يحيى بن يغان ، فانه ملك وزهد ، ولو ابتليت بما ابتلى من الملك ربما لم أزهد^(١) .

وكان من أخواله أيضا « أبو مسلم الخولانى » الذى كان له فى الطريق الصوفى مجاهدات شاقة لا يصبر عليها الفحول من الرجال .

أما أعمامه فكان منهم « عبد الله بن محمد » الذى كانت له قدم ثابتة فى الطريق ووصل الى درجة من درجات كبار الصوفية ، وهى درجة جلاء البصيرة ومعرفة بواطن الأمور .

هذه عمومته القريبة ، أما عمومته البعيدة فقد مر بنا قول « المقرئ » الأنف عنه : أنه من ولد عبد الله بن حاتم أخى عدى ابن حاتم الفقيه الصوفى المشهور .

فى هذا الظل الوارف من الصلاح والتقوى نشأ ابن عربى ، فكان جديرا بأن يكون ابن هذه البيئة الطيبة الصالحة ، حتى

(١) ابن عربى ص ٦ .

إذا اكتمل شبابه اكتملت معه الهالة المشرقة الوضاعة من حوله بزواجه من فتاة تقية صالحة ، هى « مريم » ابنة محمد بن عبدون ابن عبد الرحمن البجائى ، التى كان لها اثر كبير فى دفعه الى طريق الهدى والنور .

وكان مولد ابن عربى فى مدينة « مرسية » وكان يحكمها فى ذلك الوقت « محمد بن مردنيش » ولم تلبث جيوش الموحدون أن زحفت الى الأندلس واستولوا على أغلب مدنها ، فأعد لهم « ابن مردنيش » جيشا وخرج لقتالهم ، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة ، حتى انتهى امر « ابن مردنيش » الى الادبار فهزم فى ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ ، وابن عربى فى ذلك الوقت عمره شهور ، وحاصر الموحدون « مرسية » فترة من الزمن ثم اقلعوا عنها ، ثم عاودوا هجومهم عليها مرة أخرى ، وشددوا الحصار ، وأخيرا استسلم « بنو مردنيش » وأثروا الطاعة « لأبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدى » سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وقد أجمع المؤرخون على أن « ابن عربى » ولد فى « مرسية » باستثناء « ابن الأبار » فيما نقله عنه صاحب نفح الطيب ، من أنه من أهل « المرية » (٢) ، ولكن يبدو أن « المرية » محرفة عن « مرسية » وقد أثبت ذلك فعلا الأستاذ أحمد يوسف نجاتى فى هامش الصفحة التى ذكر فيها ذلك .

وكانت طفولة ابن عربى الأولى فى « مرسية » فى ظل ذلك الصراع الدائر حول المدينة ، ولكن ذلك لم يكن ليشتغل أسرته عن اعداد هذا الطفل لمستقبله ، فدفعوه الى من يأخذ بيده الى التهيؤ لحفظ القرآن الكريم .

(١) دائرة معارف الشعب مادة مرسية ص ٤٨ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ .

اقباله على طلب العلم – شيوخه في طلبه

في سنة ثمان وستين وخمسمائة تحولت الأسرة الى «أشبيلية» وهناك أقبل «ابن عربى» على التعلم ، وبدأ بعلوم القرآن الكريم .

وكان استأذه في علم القراءات «أبا بكر محمد بن خلف اللخمي الأشبيلي» وهو من أكبر العارفين بالقراءات والعربية ، وكان مقدما فيهما ، وله مؤلفات نافعة في اللغة والقراءات والتفسير ، توفي سنة ٥٨٦ هـ .

قرأ «ابن عربى» القرآن الكريم بالسبع على هذا الأستاذ الفاضل ، وانتفع في ذلك أيضا بكتاب «الكافي في القراءات السبع» عن طريق ابن مؤلفه : أبى الحسن بن محمد بن شريح الرعيني ، الذى كان يحدثه بهذا الكتاب عن أبيه .

وانتفع بهذا الكتاب أيضا عن طريق شيخ آخر هو : أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد القرطبى المعروف بالشرائط ، وكان عالما بالقراءات وطرقها بصيرا باللغة العربية وآدابها ، له حظ من قرص الشعر فاضلا زاهدا ورعا ، وتوفى سنة ٥٨٦ هـ .

وقرأ «ابن عربى» كتاب «التيسير لأبى عمرو الدانى» على شيخ جليل هو «أبو بكر محمد بن أبى حميرة» وكان والد هذا

الشيخ من أهل الحفظ والعلم والمعرفة ، وكان شديداً في الحق ،
وتلقى ابنه أبو بكر عنه علومه ومعرفته وفهمه وحذقه .

وكان من شيوخ « ابن عربي » في الحديث والفقه والأدب :
أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد المعروف بابن زرقون
المتوفى سنة ٥٨٦ هـ ، كان أحد سداة الرجال حافظاً للفقه مبرزاً فيه ،
مشهوداً له بالبراعة في الأدب والمشاركة في قرص الشعر وحسن
التصرف في طرفي النظم والنثر ، ولى القضاء ، وله مؤلفات ناقة .
ومن شيوخه أيضاً : أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن
ابن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدي الأشبيلي ، وكان فقيهاً
حافظاً عالماً بالحديث وعلمه ، عارفاً بالرجال موصوفاً بالخير
والصلاح والزهد والورع أديباً شاعراً ، توفي سنة ٥٨١ هـ .

كذلك كان من شيوخه في الحديث والفقه : أبو بكر
محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجدي ، وكان في وقته فقيهاً الأندلس
وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافع ولا منازع ، لا يدانيه أحد في
ذلك ولا يجاريه ، واليه كانت رئاسة بلده والانفراد بها ، ثمورته عقبه
من بعده ، وكان فصيحا خطيباً مقوماً ، وقد جل قدره في « أشبيلية »
وكان يعرف بالحافظ لكونه أعجوبة في سرعة ما يحفظه ، وبلغ به
العلم إلى مرتبة عليا بحيث أن يوسف بن عبد المؤمن كان ينزل له
عن فرسه اكراما له . توفي سنة ٥٨٦ هـ (١) .

ومن شيوخه أيضاً « أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم
الخزرجي الغرناطي » ، وكان له تحقق بالعلوم على تفاريقها ، وأخذ
منها في كل فن ، وكان من أعلم أهل الأندلس بمذهب مالك ، وهو من
أهل بيت عريق في العلم توفي سنة ٥٩٧ هـ .

ومن شيوخه « أبو القاسم جمال الدين عبد الصمد بن محمد
ابن أبي الفضل الخرسثاني » قاضي القضاء ، ولد سنة ٥٢٠ هـ ،
وكان فاضلاً فقيهاً شافعيّاً صالحاً عابداً عدلاً ، وتوفي سنة ٦١٤ هـ .

وسمع الحديث في « قرطبة » من « أبي القاسم خلف بن عبد الملك
ابن مسعود بن بشكوال » . وكان من علماء الأندلس ، وله
التصانيف المفيدة ، ولد في ذى الحجة سنة ٤٩٤ هـ ، وتوفي في
رمضان سنة ٥٧٨ هـ .

وقرأ ابن عربى كتباً كثيرة في مختلف العلوم والفنون ومن
بينها كتب « ابن حزم » حدث عن نفسه قائلاً في إحدى رسائله الى
الملك المظفر غازي :

ومن شيوخنا الأندلسيين « أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن
ابن عبد الله الأشبيلي » رحمه الله تعالى ، حدثني بجميع مصنفاته
في الحديث ، وعين لى من أسمائها : تلقين المهتدى ، والأحكام الكبرى
والوسطى والصغرى ، وكتاب التهجد ، وكتاب العاقبة ونظمه
ونثره ، وحدثني بكتب الامام « أبى محمد بن أحمد بن حزم عن
أبى الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه » (١) .

و « ابن حزم » كان حجة ، وامام وقته ، ومن كتبه التى يشير
اليها « ابن عربى » ويغلب أنه قراها : كتاب الايصال لأفهم الخصال ،
لجمع شرائط الاسلام فى الواجب والحلال والحرام ، وموضوعه فقه
الحديث ، ومنها : الاحكام لأصول الأحكام ، والفصل بين الأهداء
والنحل ، والاجماع ومسائله على أبواب الفقه ، ومنها كتاب مراتب
العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض (٢) .

عن هؤلاء الشيوخ السابقين وكثير غيرهم تلقى « ابن عربى »
علوم القرآن والحديث والفقه والأدب واللغة والأصول وغيرها .
وكان لتوجيهاتهم - لاسيما الأدباء منهم - أثر كبير فى صقل

(١) نفع الطيب ح ٧ ص ٩٩ .

(٢) دائرة معارف البستانى مادة « ابن حزم » .

موهبة الأدبية والشعرية التي أعان عليها طبعه العربي ، واستعداده الموروث من أسرة عريقة في الشعر والأدب ونشأته في هذه البيئة الأندلسية ذات الطبيعة الساحرة التي تهذب الوجدان وتثير العاطفة وترقق الشعور وتنمي الخيال .

يقول « أسين بلاثيوس » : - « ولما بلغ الثامنة من عمره انتقل مع أهله إلى « أشبيلية » بعد أن خضعت « مرسية » لحكم الموحدين ، ولابد أن يكون قد تلقى تربية أدبية ودينية كاملة ، لأنه في كتبه يشير مرارا عديدة إلى شيوخه في القراءات والتاريخ والأدب والشعر والحديث ، وقد أقرأوه في أشبيلية خصوصا الكتب الرئيسية في كل فن » (١) .

شغفه بالعلم ومقدرته فيه :

وكان لدى « ابن عربي » استعداد قوى لطلب العلم واقبال شديد على ارتياد موارده وانتهاال فيضه ، وكان عنده نهم شديد إلى قراءة كل ما يتصل بفنون العلم المختلفة ، وهو يحدثنا في كتاب « المحاضرة » عن قراءاته لكثير من الكتب في مختلف الفنون : منها كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، وكتاب المجالسة للدينوري ، وكتاب بهجة الأسرار للمام ابن جهضة ، وكتاب المبتدأ لاسحاق بن بشر ، وكتاب دلائل النبوة للامام الحافظ أبي نعيم ، وكتاب السيرة لمحمد بن اسحاق وكتاب السيرة لابن هشام ، وكتاب صفوة الصفوة لابن الجوزي ، وكتاب مسند الشهاب لابن سلامة القضاعي ، وكتاب المسند للأزرق في مكة تأليف الأزرق بن عمرو القضاعي الأزرق ، وكتاب المسند الكبير لابن حنبل ، وكتاب السنن للمسجستاني ، وكتاب الترمذي وصحيح مسلم وصحيح البخاري وغيرها (٢) .

(١) ابن عربي حياته وملعبه ص ٨ .

(٢) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ج ١ ص ٥ .

وقد أشار هو الى هذه الكتب وغيرها بعد قوله : - « كل ما سطرته في كتابي هذا فمنه ما شاهدته أو حدثني به من شاهده ، ومنه ما نقلته من كتب مشهورة رويتها سماعا أو قراءة أو مداولة أو كتابة مثل ٠٠٠ » ثم يحدثنا عقب ذلك عن روايته عن كثير من الشيوخ في مختلف الفروع ، مما يشهد له بالحرص الشديد على طلب العلم والدقة في الرواية والتمكن فيها . ويذكر عددا من الشيوخ الذين روى عنهم العلم وانتفع بهم مما يدل على أنه كرس كل وقته وكافة جهده لطلب العلم ، ويشهد لذلك الانتاج الضخم الذي انتجه في مختلف المعارف .

وقد بدأ استعداده للتعلم مبكرا ، ولم يعق هذا الاستعداد ما يصرف مثله في هذه السن المبكرة من دوافع الصبا ، والرغبة في مشاركة الرفاق بعض لهوهم الساذج ومتعهم البريئة .

ولقد كانت تغلبه في بعض الأحيان طبيعة سنه ، فيقبل على الصيد في السهول المحيطة بأشبيلية ممطيا صهوة جواد يركض به ، ولكن ذلك الاقبال لم يلبث أن يفتر سريعا تحت رغبة ملحة كامنة ، توحى اليه بوجوب انتهاز الوقت في تحصيل مالا يمكن تداركه بعد فوات الأوان ، وربما كان ذلك تعهدا الهيا لهذا الذي يوشك أن يصبح فيما بعد رجلا عارفا بصيرا ربانيا مبارك الخطوات .

وبفضل هذا الاقبال العظيم على الطلب والافادة أصبح هذا الطالب المجد استاذنا يشار اليه بالبنان ، وأصبحت لديه المقدرة الكاملة على المقارنة والاستنباط ، وأعانتة قريحته النفاذة على ادراك ما استكن من أسرار العلوم ودقائق الاشارات ، ولكنه مع ذلك كان متمسكا بطريقة السلف الذين لم يروا غير الأخذ بالكتاب والحديث والاجماع ، فنجدته ينحو باللائمة على من ينسبه الى ابن حزم أو غيره من المجتهدين الأئمة ، وإن كان يكن لابن حزم وغيره من هؤلاء كل اجلال واكبار ، ويعترف بقراءة كتبهم وتعلمه عليها . جاء

في شذرات الذهب : « كان ابن عربى » مجتهدا مطلقا بلا ريب .
قال في رائيته :

لقد حرم الرحمن تقليد مالك
وأحمد والنعمان والكل فاعذروا

وقال أيضا :

لست ممن يقول : قال ابن حزم
لا ولا أحمد ولا النعمان « (١)

ويقول أيضا في ذلك :

نسبوني الى ابن حزم وانى
لست ممن يقول : قال ابن حزم
لا ولا غيره فان مقالى
قال نص الكتاب ذلك علمى

أو يقول الرسول أو أجمع الخلق على ما أقول • ذلك حكمى

ويعلق الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل على هذه الأبيات بقوله :
« أبو محمد بن حزم الظاهري يأخذ بالنقل وظاهر النصوص
ويستكثر من السنن ، وعن طريق النقص في النقل وضعف الثقة في
الناقلين هاجم ابن حزم الملل الأخرى ، ورأها لا تثبت أمام النقد
الصحيح ، و « ابن عربى » مع اتفاقه مع ابن حزم في الاعتماد على
النقل والنصوص لا يرى أن يأخذ بظاهرها وحسب ، بل ومعها
بواطنها ، ولذا فهو يتنصل من اتهام بعض الناس له من أنه مقلد
لابن حزم الظاهري ، ولم يقلد « ابن عربى » فقيها آخر • • سواء
كان من الذين أخذوا بالظاهر ، أو جاسوا خلال الكلام وأخذوا بالرائى

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦ .

كالتقديرية أو المعتزلة أو الفلاسفة ، وإنما يعتمد في كل ما يقوله على نصوص الكتاب الكريم وأحاديث الرسول الشريفة وأجماع المسلمين ، غير واقف عند الظاهر ولا شاطح وراء الضلال ، ومهما كان تأويل « ابن عربي » لقول من الأقوال ، فإنه لم يعتمد علماً ولا حكماً الا كما ورد عن الله وعن رسوله أو أجمع عليه جمهور المسلمين » (١) .

ومما يؤكد ذلك قوله في الفتوحات : - وليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد الا للشارع صلى الله عليه وسلم » (٢) .

ويعلق ابن العماد على قول ابن عربي : لست ممن يقول قال ابن حزم قائلاً : « وهذا صريح بالاجتهاد المطلق ، كيف لا ؟ وقد قال : عرضت أحاديثه صلى الله عليه وسلم جميعها عليه ، فكان يقول من أحاديث صحت من جهة الصناعة ما قلتها ، وعن أحاديث ضعفت من جهتها قلتها ، وإذا لم يكن مجتهداً فليس لله مجتهد ، أن لا تراه فهذه آثاره » (٣) .

نفسوره من الفلسفة :

تبحر « ابن عربي » في كل العلوم الشرعية واللغوية ، وأخذ منها حظه الكامل ، ووصل الى مكانة مرموقة ، ولكنه لم يعرف عنه أنه اختلف الى أحد علماء الفلسفة ليتعلم منه ، فقد كان بطبعه ينفر منها ، وهو يقص علينا في كتاب الفتوحات قصة لقائه مع فيلسوف الأندلس : « أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي » ومنها نفهم أنه لم يكن يرغب فيما كان يشغل به ابن رشد عقله ، فلنستمع

(١) محلة منبر الاسلام : ذو القعدة ١٣٨٦ هـ .

(٢) الكبرى الأحمر ص ٣ .

(٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٩ .

اليه يقول : « دخلت يوما بقرطبة على قاضيهـا أبى الوليد بن رشد . وكان يرغب فى لقائى لما سمع ، وبلغه ما فتح الله به على فى خلوتى ، وكان يظهر التعجب مما سمع ، فبعثنى والدى اليه فى حاجة قصدا منه حتى يجتمع بى ، فانه كان من أصدقائه ، وأنا صبى ما بقل وجهى ولا طر شاربى ، فلما دخلت عليه قام من مكانه الى محبة واعظاما ، فعانقنى وقال لى : نعم ، فقلت له : نعم ، فزاد فرحه بى لفهمى منه ، ثم انى استشعرت بما أفرحه من ذلك ، فقلت له : لا . فالتقبض وتغير لونه ، وشك فيما عنده ، وقال : كيف وجدتـم الأمر فى الكشف والغـيـض الالهـى ؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر ؟

قلت له : نعم ، لا ، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها ، فاصفر لونه وأخذـه الأكل(١) ، وقعد يحوقل ، وعرف ما أشـرت به اليه ، وهو عين هذه المسألة التى ذكرها هذا القطب الامام أعنى مداوى الكلوم(٢) .

وطلب من أبى بعد ذلك الاجتماع بنا ليعرض ماعنده علينا . هل هو يوافق أو يخالف ، فانه كان من أرباب الفكر والنظر العقلى، فشكرا لله تعالى الذى كان فى زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا ، وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة ، وقال : هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أربابا ، فالحمد لله الذى أنا فى زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغاليق أبوابها ، والحمد لله الذى خصنى برؤيته .

« ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية ، فأقيم لى رحمة من الله فى الواقعة فى صورة ضرب بينى وبينه فيها حجاب رقيق أنظر اليه منه ولا يبصرنى ولا يعرف مكانى ، وقد شغل بنفسه عنى ، فقلت :

(١) الأكل على وزن أحمد : الرعدة - قاموس .

(٢) مداوى الكلوم لقب أحد الاقطاب الذين عرف اليهم ابن عربى .

انه غير مراد لما نحن عليه ، فما اجتمعت به حتى درج ، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسائة بمدينة مراکش ، ونقل الى قرطبة وبها قبره ، ولما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تأليفه تعادله من الجانب الآخر ، وأنا واقف ومعى الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جبير ، كاتب السيد أبي سعيد ، وصاحبى أبو الحكم عمر بن السراج الناسخ ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال : الا تنظرون الى ما يعادل الامام ابن رشد في مركوبه ؟ هذا الامام وهذه أعماله ، يعنى تأليفه ، فقال له ابن جبير : يا ولدى ، نعم ما نظرت لافض فوك ، فقيدتها عندى موعظة وتذكرة رحمهم الله جميعهم ، وما بقى من الجماعة غيرى ، وقلنا في ذلك :

هذا الامام وهذه أعماله
يا ليت شعرى هل أتت أماله ؟ «(١)»

فنحن نفهم من قول ابن رشد : انه في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة - وهو يقصد « ابن عربى » بقوله هذا - ان « ابن عربى » حين دخل الخلوة لم يكن على دراية بعلوم الفلسفة التى يعتبرها ابن رشد هى العلوم الجديرة بالاطلاع ، ومن لم يطلع عليها فهو جاهل . كما يفهم من قول « ابن عربى » عن ابن رشد : انه غير مراد لما نحن عليه عدم رغبة « ابن عربى » في تلقى هذه العلوم التى كان يدرسها ابن رشد .

وكذلك يفهم من حوار الأصدقاء يوم وفاة ابن رشد مدى الرثاء لحالته ، وكيف يرثى « ابن عربى » لحالة شخص ويرغب في أن يكون عليها ؟

كما نفهم أيضا كراهيته للفلسفة من هذه القصة التى يقصها

(١) ابن عربى ص ١٢ .

في كتاب التدبيرات الالهية « رأيت لبعض اهل الكفر في كتاب سماه « المرتبة الفاضلة » رأيت بيد شخص بمرشانة الزيتون ، ولم أكن رأيت قبل ذلك ، فأخذته من يده وفتحته لأرى ما فيه ، فأول شيء وقعت عينى عليه قوله : وأنا أريد في هذا الفصل ان ننظر كيف نصنع الها في العالم ٠٠ فتعجبت من ذلك ورميت الكتاب الى صاحبه « (١) » .

فاننا نرى ان « ابن عربى » حكم على ذلك الفيلسوف انه من اهل الكفر وذلك يبين مدى ما كان يكنه لهذا العلم من احساس . ومع ذلك فان « ابن عربى » لم يؤثر عنه التزم والجود ولكنه كان يناقش قضايا هؤلاء الفلاسفة في هدوء ويرد على ما لم يقتنع به بالمنطق .

مكانته في العلم وشهادة العلماء له :

ولقد بعدت همة « ابن عربى » في طلب العلوم وكانت له عزيمة لا تعرف الكلل ، وتكبد في سبيل تحصيله كثيرا من المشاق ، وكان كالحلحة دائب الانتقال من روض الى روض ، حتى جمع في ذلك ذخيرة شهد له بها القاصى والدانى ، وسيأتى بيان عن ذلك بعد .

وقد أجازته كثير منهم مثل « ابن عساكر » امام وقته في علمه ودينه . والذى اشتغل عليه خلق كثير وتخرجوا على يديه وصاروا أئمة فضلاء وكان مسددا في الفتوى — توفى في العاشر من رجب سنة عشرين وستمائة بدمشق .

و « ابن الجوزى » الذى كان علامة عصره في الحديث وصناعة الوعظ ، وقد صنف في فنون عدة منها : زاد المسير في علم التفسير .

(١) ابن عربى ص ٣١ .

أربعة أجزاء ، وله فى الحديث تصانيف كثيرة توفى سنة
سبع وتسعين وخمسمائة •

و « الحافظ السلفى » أحد الحفاظ الكثيرين رحل فى طلب
الحديث ودخل ثغر الاسكندرية سنة ٥١١ وأقام به وقصده الناس
من كل حدب ، وبنى له العادل وزير الخليفة الظافر مدرسة بالثغر
سنة ٥٤٦ هـ توفى ٥٧٦ بالثغر •

واجازة هؤلاء الأعلام « لابن عربى » شهادة لها قيمتها ، لأنها
تدل على مدى ما وصل اليه من مقدرة فائقة وبراعة لا نظير لها ،
وتفوق لا حد له فى سائر العلوم التى برع فيها هؤلاء الأعلام
الأفاضل •

سلوكه الطريق الصوفى – الرحلات التى قام بها

كان للبيئة التى نشأ فيها « سلطان العارفين » أثر كبير فى اتجاهه الصوفى فقد سبقت الإشارة الى صلاح أبويه وأعمامه وأخواله ، ثم من الله عليه بزوجة صالحة ، كانت نعم العون له على ارتياد الطريق الى الله .

وكان « ابن عربى » قد قلد أعباء وظيفة كاتب فى حكومة « اشبيلية » (١) ، ويذكر الشعراتى ان هذه الوظيفة كانت لدى بعض ملوك المغرب ، فيقول : « كان رضى الله عنه – أولا من الموقعين عند بعض ملوك المغرب » (٢) ويذكر صاحب نفح الطيب انه « كتب لبعض الولاة ثم رحل الى المشرق » (٣) ويذكر ابن العماد فى شذرات الذهب نقلا عن المناوى انه « كان يكتب الانشاء لبعض ملوك المغرب » (٤) .

ولا تعارض بين هذه النصوص فى حقيقة الأمر ، فقد كانت

(١) ابن عربى ص ٩ .

(٢) اليواقيت والجواهر ص ٧ .

(٣) نفح الطيب ج ٧ ص ٩٣ .

(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

أشبيلية ومرسية وغيرهما من المدن الأندلسية الشهيرة تحت سيطرة الموحدين ملوك المغرب •

ولكنه سرعان ما ضاق بقيود الوظيفة ، وتاق الى الحرية ليتفرغ لما اختاره لنفسه على هدى من الله من زهادة وتقشف ، وقد كان ذلك في حياة أبيه ، وساعده على ذلك مرض شديد أصابه فألزمه الفراش ، فلما برئ منه كانت نفسه قد خلصت من شوائبها كالذهب الذي تهذيبه النار ، وتهيا للانصراف كلية الى حياته الجديدة ، ولكن تفرغه الكامل لها لم يتم الا بعد وفاة أبيه •

وكان في ذلك الوقت قتي في حوالي العشرين من عمره ، وكان قد سبق ذلك الانقطاع قيامه ببعض المجاهدات ومن بينها الزام نفسه الخلوة بين الدين والحين ، يدل على ذلك المحاورة التي تمت بينه وبين ابن رشد التي أشير اليها سابقا ، والتي أراد ابن رشد بواسطتها أن يجعل من « ابن عربي » موضوع دراسة ويبحث •

وحبب الى « ابن عربي » العزلة ، فانقطع عن الناس وعاش بين المقابر • يقول الشعراني « ثم انه طرده طارق من الله عز وجل فخرج في البراري على وجهه ، الى أن نزل في قبر فمكث فيه مدة ثم خرج » (١) • ويقول صاحب شذرات الذهب : « برز منفردا مؤثرا للتخلي والانعزال عن الناس ما أمكن ، حتى أنه لم يكن يجتمع به الا الأفراد » (٢) •

ويحدث هو عن نفسه في كتاب الفتوحات قائلا : « ولقد كنت انقطعت في القبور مدة منفردا بنفسى ، فبلغنى أن شيخنا يوسف ابن خلف الكومى قال : ان فلانا - وسمانى - ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الموتى (٣) ، وقد حدثت محاورة بين هذا الشيخ وبين

(١) البواقيت والجواهر ص ٨ •

(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ •

(٣) ابن عربي ص ١٣ •

« ابن عربى » انتهت باعتراف الشيخ بأن الذى يجالس الأموات هو الذى يعيش بين الأحياء لا الذى يعيش بين القبور . وحقا ذلك ، فكلم من ميت حى ، وكلم من حى ميت . ولطالما سمعنا هذا الأثر : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، والقرآن الكريم يقول : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (١) .

بدأ تحول « ابن عربى » الى الطريق الصوفى مبكرا ، وبدأ يتلمذ على كتب الصوفية ثم عقد العزم على التعرف الى رجالهم والبحث عن شيوخهم وأعانتته مراثى الصافية على الانتفاع السريع بكل ما قرأ والافادة ممن لقي وعرف .

والمعرفة الصوفية ليس لها سوى مفتاح واحد ان فقدته الإنسان حرم ، ولو كانت فى يده حلقة بها مئات المفاتيح ، وهذا المفتاح هو العمل ، يصدق ذلك القرآن الكريم « واتقوا الله ويعلمكم الله » (٢) . والأثر الشريف : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

ولقد كان « ابن عربى » عاملا بما يعلم ، فتفتحت امامه مغاليق العلوم ، وأعطته ما غمض من أسرارها ، وتمكن فى وقت وجيز أن يترجم عن مفهومات حيرت الفحول من الرجال ، وجعلته كعبة القصاد فى الوقت الذى كان هو يشد الرحال نحو كل من يسمع عنه أنه ذاق من هذا الطريق شيئا . وهذا هو التواضع الكريم الذى جعله الله حلية الكمل من الرجال .

ولذلك نراه قد كثرت رحلاته فى داخل الأندلس وخارجها ، وكلها رحلات لم يكن الهدف منها سوى لقاء الشيوخ وتحصيل العلم واكتساب المعارف وبناء الرجال . وبالرغم من أن « ابن عربى » وصل الى منزلة عالية كريمة

(١) سورة ق ٢٢ .

(٢) البقرة ٢٨٢ .

الا أنه كان يعترف دائما بأن كل من يلقاه شيخ له ، فكان يقول :
شيخي فلان ، ولقيت شيخي فلان ، وجاء لزيارتي شيخي فلان •

وشيوخ ابن عربي في الطريق كثيرون ، وكل شيخ له مزية خاصة
وذوق خاص والطريق الصوفي غاص بالأسرار وملئ بالعقبات ، وكل
سر له طريق لا يمكن النفاذ اليه الا بإرشاد يعرفه شيخ ولا يعرفه
آخر • فمن أجل هذا لم يأنف ابن عربي من أن يتلمذ على الشيوخ
جميعا ، وهذا الذي جعله يغرف من كل البحور ، ويفهم كل الاشارات
ويترجم بمختلف الأسرار ولا يلتوى عليه أى مسلك ويشهد له العام
والخاص •

فمن شيوخه الذين ذكرهم في كتابه الفتوحات « موسى
البيدراني » ويعدده « ابن عربي » من الأبدال ، ويذكر أنه قدم اليه
خاصة « أشبيلية » ليراه ، رغم أنه لم يكن قد بلغ بعد
السادسة والعشرين من عمره ، وليس ذلك بغريب ، فليس التقدم
بالسن ، فمن معانى كلمة « الشيخ » أنه من بلغ مرتبة أهل الفضل
ولو صبييا •

ومن شيوخه أيضا « أبو عمران موسى بن عمران المارتنلي »
وكان منقطع القرين في الورع والزهد والعبادة والعزلة ، وكان ملازما
لمسجده داخل أشبيلية ، وكان الملوك يزورونه ولا يلتفت اليهم ، وله
نثر ونظم في الزهد مدون مشهور ، فمن نثره : كل ما يفنى ماله
معنى — من خف لسانه وقدمه كثر ندمه — من أعطاك رقهه فقد
منحك وده — ملك قوادك من أفادك • ومن نظمه :

الى كم اقول ولا افعل	وكم ذا أحصوم ولا أنزل ؟
وأنجر عيني فلا ترعوى	وأنصح نفسي فلا تقبل ؟
وكم ذا تعلل لى ويحها	بعل وسوف وكم تمطل ؟
وكم ذا أومل طول البقا	واغفل والموت لا يغفل ؟

توفى سنة ٦٠٤ هـ عن اثنتين وثمانين سنة (١) . وكان « ابن عربي » يجل هذا الشيخ كثيرا ، ويذكر عنه أنه سيد وقته ، ويعترف بأنه هو الذى أرشده الى كيفية تلقى الالهامات الالهية .
ومنهم « أبو الحجاج يوسف الشبربلى » وهو شيخ معتقد له كرامات ظاهرة وكان ملازما لتلاوة القرآن .

ومن شيوخه « يوسف الكومى » العالم الورع المجاهد الذى كان يحث أتباعه على لزوم المجاهدة ، حتى يمكنهم اجتياز العقبات فى طريقهم الى الله .

ومنهم « أبو عبد الله بن المجاهد » و « أبو عبد الله بن قيسوم » وكلاهما من الشيوخ الأجلاء المدققين الذين بلغوا فى محاسبة النفس على الأقوال والأفعال مبلغا كبيرا ، وقد ترك كل هؤلاء أثرا فى نفس « ابن عربي » نظرا لما تختلف عليه مشاربهم وأذواقهم .

وقد رسم هو على ضسوء لقائه للشيوخ طريقه ومذهبه ، وبواسطتهم قد استنار سبيله ووضحت محجته ، ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء ، مضيفا الى زاده ما يراه نافعا له فى رحلته ومعينا له على وعورة الطريق . لذلك نراه يدقق فى محاسبة نفسه فلا يكتفى بمحسابتها على الأقوال والأفعال كما فعل « ابن المجاهد وابن قيسوم » ولكنه يزيد عليهما فى التدقيق فيحاسب نفسه على الخواطر ، وتلك نهاية الورع ، وما أحسب أن وصل اليها أحد الا من كان فى مرتبة الصديقين .

ويقول « أسين بلاثيوس » عن « ابن عربي » : « انه عمل على تكوين روحه منذ سنوات شبابه بالزهد فى الشهوات نماذج رائعة فى الزهد قدمها زهاد فى أشبيلية على رأسهم جميعا يجدر أن نذكر عبد الله المغاورى » (٢) .

(١) المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٦٠٤ .

(٢) ابن عربي ص ١٧ .

. و « أبو محمد عبد الله المغاوري » شيخ جليل له كلام رائع وتوجيهات كريمة. منها قوله يوصي أبا الحسن الأشبيلي : « أmerk بخمس وأنهاك عن خمس ، أmerk باحتمال أذى الخلق ، واندخال الراحة على الأخوان وأن تكون أذننا لا لساننا ، والخامس أن تكون مع الناس على نفسك ، وأنهاك عن معاشرة النساء وحب الدنيا وحب الرياسة وعن الدعوى وعن الوقوع في رجال الله » فما أجمله من كلام خرج من نفس صافية !

وما أجدر « ابن عربي » بالانتفاع بمثل هذه التوجيهات وهو الحريص على تحصيل الجيد من القول والنافع من العمل ، ليتخذ منهما دليلا ومرشده .

ولقى من شيوخه « شعيب بن الحسين الأندلسي الملقب بأبي مدين » وقد دلت « ابن عربي » على لقائه خارقة من خوارقه العديدة (١) ، وقد شهد هذا الشيخ لابن عربي ولقبه بسلطان العارفين « وكلام الرجل أدل دليل على مقامه الباطن » (٢) .

وأبو مدين أحد الصوفية العظام وأصله من أشبيلية ، طوف سائحا في الأرض وسكن « بجاية » مدة ثم « تلمسان » وكان من أهل العمل والاجتهاد وكان امام وقته ، وقد أقام مدرسة صوفية في مدينة « بجاية » تخرج فيها الكثير من الأجلة . وقد لقيه « ابن عربي » في أثناء جولاته التي قام بها في بلاد المغرب وكان يطلق عليه « شيخ الشيوخ » وقد خاض أبو مدين كثيرا من الأحوال ، وكان في مقام التوكل لا يشق له غبار . توفي سنة ٥٩٠ أو ٥٩٤ على خلاف بتلمسان .

ومن الشيوخ الذين كان لهم تأثير خاص في حياة « ابن عربي »

(١) طبقات الشعراني ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) طبقات الشعراني ج ١ ص ١٦٢ .

الشيخ أبو العباس العرينى * ويذكر أسين بلاثيوس عنه : أنه كان من الشيوخ المتوفرين فى أشبيلية على تربية الشباب وإعدادهم ليكونوا محل نظر الله فى الأرض ، فكانوا يجتمعون لديه ، ويقراءون من علمه وينتفعون بزمهده ، وكانت له هيمنة خاصة على مريديه ، ويعتبرونه جميعا أباهم وهم أخوة بين يديه ، يستشهد لذلك بتفسيره معنى « الأقربون » فى قوله تعالى « الأقربون أولى بالمعروف » بقوله : الأقربون هم الأقربون الى الله لا الأقربون فى الرحم * وهذا التفسير ذكره « ابن عربى » فى كتابه الفتوحات نقلا عن شـيـخـه العرينى *

وتلقى « ابن عربى » عن هذا الشيخ كثيرا من التوجيهات ، ونقل عنه كثيرا من المعلومات وربما كانت تحدث بينه وبين شيخه مناقشات فى بعض الأحيان ، فيحتد فيها « ابن عربى » ، لأنه لم يكن قد أخذ بعد على ذلك النظام الذى وضعه شيخه العرينى لمريديه من وجوب التسليم المطلق للشيخ ، فيتدخل « الخضر » حينذاك لرد « ابن عربى » الى الطريق السوى ، وهو وجوب عدم معارضة الشيوخ ، وقد ذكر ابن عربى فى كتابه الفتوحات هذه الوقائع فى أكثر من موضع ، نذكر منها هذه الواقعة نقلا عن كتاب ابن عربى : « الخضر صاحب موسى - عليه السلام - أطال الله عمره الى الآن بخلاف علماء الرسوم لخبر صحيح تأولوه ، قد رأيناه مرارا واتفق لنا فى شأنه أمر عجيب ، وذلك أن شيخنا العباس العرينى ، جرت بينى وبينه مسألة فى حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله صلى عليه وسلم فقال لى : هو فلان بن فلان * وسمى لى شخصا أعرفه باسمه وما رأيته ، ولكن رأيت ابن عمته ، فتوقفت فيه ولم أخذ بالقبول ، أعنى قوله فيه ، لكونى على بصيرة فى أمره ، ولا شك أن الشيخ رجع سهمه عليه فتأذى فى باطنه ، ولم أشعر بذلك فى بداية أمرى ، فانصرفت عنه الى منزلى ، ولما كنت فى الطريق لقينى شخص لا أعرفه ، فسلم على ابتداء سلام محب

مشفق ، وقال لى يا محمد صدق الشيخ ابا العباس فيما ذكر لك عن فلان ، وسمى لى الشخص الذى ذكره أبو العباس العربى . فقلت له : نعم وعلمت ما أراد ، ورجعت من حينى الى الشيخ لأعرفه بما جرى ، فلما دخلت عليه قال لى : يا أبا عبد الله ، الاحتاج معك اذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها الى « الخضر » يتعرض اليك ويقول : صدق فلانا فيما ذكره لك ؟ ومن أين يتفق لك هذا فى كل مسألة تسمعها منى فتتوقف ؟ فقلت : ان باب التوبة مفتوح ، فقال : وقبول التوبة واقع ، فعلمت أن ذلك الرجل كان الخضر ، ولا شك أنى استفهمت الشيخ عنه : أهو هو ؟ قال : نعم هو الخضر « (١) » .

ولا شك فى أن ظهور الخضر لابن عربى أمر له أهميته ، وهو ان دل على شىء فأنما يدل على قوة مكانته ورفعة منزلته ، وعلى أنه سيكون ذا شأن عظيم فى الطريق ، والا لما كان ارشاده الى وجوب التسليم للشسيوخ وعدم منازعتهم على يد الخضر الذى أخفى الله صورته عن الناس لحكمة تدق على الأفهام .

وقد عد بعض المحققين « الخضر » من شيوخ « ابن عربى » فقد كان له معه اجتماع كثير (٢) . وانطلق « ابن عربى » فى طريقه وقد وضح هدفه ، وهو يحاول الانتفاع بتوجيهات شيوخه والافادة من كل من يلقاه من أهل الطريق — وقد لقى كثيرا منهم — وكان ديدنه التواضع للجميع وخدمة الرفقاء ، وقد تعلم من ذلك علوما جمة ، واستفاد فوائد كثيرة ، فقد عرف كيف يسوس نفسه وكيف يربى ارادته وكيف يجمع همه وكيف يصبر فى الشدة وكيف يزهّد عن ملك ويعف عن قدرة وكيف يوجد بما عنده ويؤثر غيره

(١) ابن عربى ص ٢٣ .
(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٥٨ .

على نفسه • ورفع ذلك من همته فرمى بقصده الى الله ، عن طريق الحب يعرفه ، أو عن طريق المعرفة يحبه •

ولم يأنف في طريق الصعود الى الله أن يتعلم من كل من يلقي ، صغيرا كان أو كبيرا ، ذكرا كان أو انثى ، عظيما كان أو حقيرا •

وقد مر بنا كيف أنه خدم امرأة أدرك أنها عارفة بالله اسمها « فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي » ووصل من اعزازها له وانقطاعه لخدمتها أن كانت تدعوه بابنها ، وتقول له : أنا أمك الالهية « ونور » أمك الترابية ، وقد مكث معها عامين يخدمها • كما عرف امرأة أخرى مسنة اسمها « ياسمين » وكان يعتبرها من الأواهين ، كما صاحب ، « أبا يحيى الصنهاجى » الضرير وهو من أصحاب الكرامات و « يوسف الأستجى » وكان من الأميين المنقطعين الى الله ، و « أبا عبد الله الشرقى » وكان من أصحاب الخلوات « وصالحا البربرى » وكان صوفيا سائحا كثير التجوال • يقول : « كان عندنا بأشبيلية رجل عابد حسن الصوت كثير الاجتهاد سريع الدمعة دائم العبرة كثير الفكرة والتهجد ، بت معه ليالى عدة ، فلم يكن يفتر ، فربما أسمعته فى بعض الأحيان ينشد بصوت غرد ، ودموعه تنحدر على خديه :

قطع الليل رجـال ورجـال وصلـوه

رقدوا فيه أناس وأناس سـهروه

لا يميلون الى النوم ولا يسـتعذبوه

فكان النوم شىء لم يكونوا يعـرفوه (١)

من هؤلاء جميعا تلقن « ابن عربى » فن الحكمة الصوفية ،

(1) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ٢٣ •

وتلقى دروس الطريق وآدابها وكون لنفسه شخصيته الفذة التي
أشرقت في الميدان الصوفي ، وكان لها ذلك الانتاج الغزير الوافر الذي
لا يكون الا لمن عمر الله أوقاتهم وبارك فيها . فكانت أيامهم الهية
موفورة الجنى مباركة الثمرات .

رحلاته في داخل الأندلس وفي بلاد المغرب :

وبدأ « ابن عربي » مرحلة جديدة من حياته ، بدأ يسير
في البلاد توقا الى ارواء ظمئه الى المعرفة ، وقد تعلم من تجاربه أن
المعرفة بحر لا ساحل له ، اذ كلما ازداد الانسان منها شربا ازداد
ظما .

و « ابن عربي » شأنه شأن الراسخين من رجال التصوف ،
فقد تصوف عن علم بعد أن تبحر في علوم الشريعة وشهد له فيها
كثير من أعلام الفقه والحديث والتفسير واللغة ، وهذه منزلة كفيلة
وحدها أن ترفع من قدره بين أقدار الرجال ، ولكن ذلك وحده
لم يكن كافيا لأرضاء طموحه ، فقد كانت همته أبعد من ذلك ، وكان
مثله كمثل حجة الاسلام الغزالي ، الذي سلك طريق التصوف بعد
أن أروى ظمأه من كافة العلوم الأخرى مع فارق يسير ، يظهر في
غزارة انتاج « ابن عربي » في علوم التصوف ، وغزارة انتاج الغزالي
في العلوم الأخرى . والسبب راجع الى تذكير « ابن عربي » في
ارتياح الطريق الصوفي ، أما الغزالي فلم يتصوف الا بعد أن أفنى
زهرة شبابه في العلوم الظاهرية .

والسياحة عنصر من عناصر الطريق الصوفي ، فعن طريقها
يربى المرء ارادته ، ويهذب نفسه ، ويصح عزمه ، ويوثق
صلته بالله ، ويقهر دواعي نفسه التي يولدها الركون الى الاستقرار ،
وفي السياحة اعانة على الفكر وحث على المعرفة واكتساب للتجربة
وأنس بالله والتجاء اليه واعتصام به ، لذلك لا نكاد نجد صوفيا
الا وله سياحاته المتعددة ورحلاته المختلفة .

بدأ « ابن عربى » رحلاته فى داخل بلاد الأندلس وفى بلاد المغرب العربى ، وكانت رغبته فى المعرفة رائده ، وكان لا يكاد يخلو بلد من البلاد التى رحل اليها من شيخ فاضل أو عالم جليل . وكان يتعلم من كل رحلة علما جديدا ، وكان يقيد كل ما يعن له من فوائد وفيوضات ومعارف .

بدأ رحلاته بزيارة مدينة « مورور » قبل سنة ٥٩٠ هـ وهناك التقى بشيخ صوفى عظيم اسمه « أبو محمد المورورى » وكان عقده التوكل ، وكانت له معه صحبة جميلة أثمرت ثمارا يانعة وفوائد رائعة .

ورحل الى مدينة « الزهراء » ثم الى « قرطبة » ثم ارتد الى « أشبيلية » ولقيه بها كثير من الشيوخ الذين تسامعوا بعلو كعبه فى الطريق الصوفى ، فقصدوا اليه طلبا للتعرف به والافادة من علمه وخبرته .

ولم يلبث « ابن عربى » أن انطلق الى خارج الأندلس ميمما شطر المغرب العربى ، فذهب الى « تونس » فى حوالى سنة ٥٩٠ هـ ، ولكنه لم يطل اقامته بها فقد عاد الى « أشبيلية » فى نفس العام . وقد أفاد من رحلته هذه أفادة كبرى ، فقد لقي فى تونس صوفيا كبيرا اسمه « أبو محمد عبد العزيز » الذى توطدت الصداقة بينه وبين « ابن عربى » كما لقي صوفيا آخر هو الشيخ « جراج ابن خميس الكتانى » من سادات القوم .

ورجع الى « أشبيلية » عن طريق محاذاته للشاطيء ، فمر على تلمسان، وزار قبر خاله « يحيى بن يغان » الذى سبقت الإشارة اليه .

وفى العام التالى سافر الى « فاس » ثم عاد الى « أشبيلية » مرة أخرى ، وفى عام ٥٩٣ هـ ارتد الى « فاس » وأقام بها فترة

عاكفا على العبادة والمجاهدة وملاقة الشيوخ الأجلاء من الصوفية ،
أمثال الشيخ « أبى عبد الله محمد بن قاسم » أمام مسجد الأزهر
« بفاس » وكان عالما جليلا ، وله مصنفات مشهورة من بينها كتاب :
المستفاد في ذكر الصالحين من العباد ، وقد استمع « ابن عربى »
الى هذا الكتاب من مؤلفه .

وقد تتلمذ على « ابن عربى » كثيرون في « فاس » وكان يلتقى
بهم في مكانه المختار « بستان بن حيون » يستمعون الى محاضراته
الصوفية التى كان يلقيها عليهم .

ثم ذهب الى « سبتة » والتقى هناك ببعض الصالحين ، وكان
ذلك في طريق عودته الى الأندلس سنة ٥٩٤ هـ ، وهو يريد عبور
مضيق جبل طارق اليها .

وفي « غرناطة » التقى بشيخ جليل هو « أبو محمد عبد الله
الشكاز » ويصفه « ابن عربى » بأنه من أكبر من لقيهم في هذا
الطريق ، ولم ير مثله في الاجتهاد ، وكان ذلك اللقاء في صدر
سنة ٥٩٥ هـ .

وفي العام نفسه توجه الى مسقط رأسه « مرسية » ومنها
توجه الى « المرية » التى كانت مركزا هاما من مراكز التصوف في
الأندلس ، ويبدو أن « ابن عربى » قد أقام فيها فترة طويلة يعكف
على العبادة والتأليف ، ويلتقى بصديقه الصوقى « أبى محمد عبد الله
الغزالى » تلميذ الشيخ « أبى العباس بن العريف » أحد اعلام
التصوف ومؤلفيهم ، ومن الكتب التى ألفها « ابن عربى » في المرية
كتاب « مواقع النجوم » وهو من الكتب الهامة .

ولم يلبث في عام ٥٩٧ هـ أن اتجه الى المغرب مرة أخرى ،
والتقى في « مراكش » بشيخ زاهد من شيوخ التصوف اسمه
« أبو العباس السبتي » ومن هناك انتقل الى « فاس » بناء على

أمر الهى صدر اليه ليصطحب من هناك شخصا اسمه « محمد الحصار » الى المشرق .

هذه هى الرحلات التى قام بها « ابن عربى » فى داخل حدود الأندلس والمغرب والتى بدأت برحلته الى « مرور » قبل سنة ٥٩٠ هـ بقليل وانتهت برحلته الى « مراكش وفاس » فى عام ٥٩٧ هـ .

رحلاته الى المشرق :

بدأ « ابن عربى » رحلته الكبرى الى المشرق سنة ٥٩٨ هـ كما تقول المصادر . وتختلف وجهات النظر حول أسباب هذه الرحلة ، فبعضهم يرجعها الى أسباب سياسية تعود الى ما ساد البلاد فى المغرب من فتن واضطراب فى ذلك الحين ، بسبب أقول شمس الموحدين . يقول الدكتور جودت الركابى : « ولما اضمحل شأن الموحدين وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والثغور الأندلسية . غادر الأندلس فى تلك الفترة كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير وآثروا العمل فى جو أكثر استقرارا وطمانينة مثل الشيخ محيى الدين بن العربى شيخ المتصوفين الشهير وابن البيطار المالقى » (١) .

ويرى صاحب كتاب « الشعر الأندلسى » أن السبب فى هجرة كثير من العلماء والشعراء ومنهم « ابن عربى » يرجع الى اضمحلال الأندلس الاسلامى تحت وطأة الاسترداد التى شاعت فى ذلك الوقت (٢) .

(١) الشعر الأندلسى لاميولوجوس ترجمة حسين مؤنس ص ٣٦ .

(٢) فى الأدب الأندلسى للدكتور جودت الركابى ص ٥٧ .

..... ولكن يبدو أن « ابن عربى » لم يكن مختارا فى القيام بهذه الرحلة ، ولكنها كانت توجيهها الهيا ، وليس ذلك بغريب ، فان من صفت مراتهم وارتقت أحوالهم أصبحت حركاتهم وسكناتهم لا تصدر الا بناء على توجيه الهى يدركونه بأرواحهم وأذواقهم ، فقد تخلوا عن حظوظهم البشرية ، وارتقوا الى مستوى يجعلهم ربانيين يدخلون فى نطاق الأثر القدسى : عبدى أطعنى أجعلك ربانيا ، والربانى هو الذى يذكره القرآن الكريم بقوله : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (١) .

رأى رؤيا فى « مراکش » يلقي اليه فيها الأمر بالتوجه الى مدينة « قاس » ومن هناك يصطحب شخصا اسمه « محمد الحصار » الى المشرق . ويستجيب ابن عربى للأمر ويلتقى بالحصار الذى يخبره بأنه رأى مثل هذه الرؤيا ، ويتجهان معا نحو « تلمسان » .

أما الرؤيا العجيبة التى تكشف عن مستقبل « ابن عربى » وعلى منزلته فهى التى رآها فى « بجاية » فى العام نفسه ، وهذه الرؤيا يقصها علينا صاحب نفح الطيب على لسان « ابن عربى » « رأيت ليلة أنى أنكحت نجوم السماء كلها ، فما بقى نجم الا أنكحته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف (وفى نسخة أعطيت البدور) فنكحتها ثم عرضت رؤياى هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها ، وقلت للذى عرضتها عليه : لا تذكرنى ، فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال : هذا هو البحر الذى لا يدرك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه ، ثم

(١) آل عمران ٧٩ .

سكت ساعة وقال : ان كان صاحب هذه الرؤيا فى المدينة ، فهو ذاك الشاب الأندلسى الذى وصل إليها « (١) » .

وبدأت رحلته الكبرى الى المشرق فى العام التالى ٥٩٨ هـ وتوقف فى « تونس » فترة طويلة بلغت حوالى تسعة شهور ، استأنف بعدها السفر قاصدا مكة المكرمة ، ومر فى طريقه « بمصر » ، ولكن اقامته لم تطل بها فى هذه المرة ، وفى « مصر » فقد صاحبه الذى أمر باصطحابه ، فقد مات ودفن بها ، وواصل « ابن عربى » رحلته الى مكة وحيدا .

وكانت شهرته قد سبقته الى هناك ، وتوافد عليه الأولياء والعلماء من كل فج يطلبون رؤيته والافادة من علمه وفضله ومعرفته .

وتوثقت الصلة بينه وبين « مكين الدين أبى شجاع زاهد ابن رستم بن أبى الرجا الأصفهانى » أمام مقام ابراهيم . ولهذا الشيخ أخت عالمة مسنة أطلق عليها « ابن عربى » لقب : شيغة الحجاز وفخر النساء : وله ابنة من أرباب الأحوال والمقامات . جمعت بين الحسنين الظاهرى والمعنوى ، ووصفها بأنها من العابدات العالمات السائحات الزاهدات، وأطلق عليها لقب : شيغة الحرمين ومربية البلد الأمين ، أما اسمها فهو « النظام » .

وكانت هذه الفتاة آية من آيات الله فى العلم والفهم والابانة ، وكان من الطبيعى أن تدور مناقشات علمية صوفية بين « ابن عربى » وبين أفراد هذه الأسرة الكريمة . ويعجب بهذه الفتاة التى بلغت فى المعرفة حدا كبيرا ، وكانت مصدر الهام أوحى له بديوان « ترجمان الأشواق » الذى نسج فيه قصائده الرمزية على طريقة الصوفية التى يتغزلون فيها بانسان حى ، ولا يقصدون من ورائه

(١) فتح الطيب ج ٧ ص ١٥٠ .

سوى الإشارة الى معان علوية دقيقة ، ثم لم يلبث أن وضع شرحا لذلك الديوان خوفا من أن يسبق الى ذهن أحد فهم خاطيء لا يتناسب وجلال هذه المقطوعات الصوفية الرائعة .

وأقام « بالطائف » قريبا من « مكة » فترة من الوقت وعاد الى مكة ، ولقى بها بعض الصوفية ، والتقت روحه مع روح بعض الذين فارقوا الحياة الدنيا من الأولياء والصالحين والصديقين .

وفي عام ٦٠١ هـ رحل الى « بغداد » ولكنه لم يقم بها سوى اثني عشر يوما استأنف بعدها السفر الى « الموصل » للقاء شيخ من شيوخ الصوفية اسمه : « على بن عبد الله بن جامع » وكانت لهذا الشيخ روح خاصة وتعلق شديد بالخضر .

واتجه « ابن عربي » صوب « مصر » في سنة ٦٠٣ هـ حيث أقام هناك في صحبة بعض الصالحين ، يعمرون أوقاتهم بالعبادة والطاعات في أحد البيوت « بزقاق القناديل » بالقاهرة ، وكان ذلك في خلافة الملك العادل ، وقد تعرض لمحنة سنعرض لها فيما بعد .

ومن القاهرة توجه الى « الاسكندرية » حيث لم يقم فيها طويلا ، ثم غادرها الى مكة .

ويذكر الدكتور « على صافي حسين » أن « ابن عربي » التقى « بابي الحسن الصباغ » في أرض الصعيد بمصر ، في اثناء ذهابه الى مكة ، وحضر مجالسه ، و « الصباغ » شاعر صوفي مشهور ، ولكن شهرته لم تصل الى شهرة غيره ممن جاوزوا مواطنهم الأصلية وساحوا في البلاد ، واسمه « على بن أحمد بن اسماعيل ابن يوسف » وكنيته : أبو الحسن الصباغ وأصله من مدينة « قوص » وتوفي سنة ٦١٣ هـ ، واشتهر بالزهد والورع والعمق في التصوف ، وأنه كان من خير شيوخ التصوف تربية ، وأستاذه

الشيخ « عبد الرحيم القناوي » أكبر رجال التصوف شهرة وأعظمهم قدرا وأبعدهم عينا في القرن السادس الهجرى (١) .

والتقى في مصر أيضا بسلطان العاشقين « ابن الفارض » على رأى ، وسيأتى حديث عن ذلك بعد .

وأقام الشيخ الأكبر في « مكة » عقب رحيله من مصر إليها فترة لم تطل ، فسرعان ما أخذ أهفته ، بناء على التوجيه الروحي الى مواصلة السياحة ، فرحل الى آسيا الصغرى وخط رحاله في « قونية » سنة ٦٠٧ ، وكانت « قونية » عاصمة الاقليم الخاضع للمسلمين في الدولة البيزنطية ، وقد استقبل هناك استقبالا حافلا ، وخرج الملك بنفسه لاستقباله احتراماً له وقياما بواجب الضيافة ، وأهداه دارا تقدر المصادر قيمتها بمائة ألف قطعة من الفضة ، ولكنه تصدق بها .

وربى في « قونية » كثيرا من المريدين ، على رأس القائمة منهم « صدر الدين القونوى » الذى كان من أحب تلاميذه اليه ، والذى كان له فضل كبير في تيسير تلقى علوم استاذة للمتعلمين ، وفى حمل لواء الدفاع عنه ضد المهاجمين والناقدين .

ولم يستقر في « قونية » طويلا ، فقد واصل تجواله في آسيا الصغرى ، واستمر في هذه الرحلة ما يقرب من عام ، مر في خلاله بكثير من المدن الهامة في الأناضول مثل « قيصرية » و « ملطية » و « سيواس » و « أرزن الروم » وقد كانت آسيا الصغرى تطلق على « أرمنية » و « تركيا والأناضول » .

ثم لم يلبث ان دخل « العراق » فزار « حران » في نفس

(١) الادب الصوفى في مصر في القرن السابع الهجرى ص ١٢٠ . الدكتور على صافى حسين .

العام يصحبه في هذه الرحلات بعض أخوانه من أهل الطريق ،
فيأتسون في سياحاتهم أشد ما يكون الأنس ، وينعمون بما يتلقونه
من فيض الهى ومدد روحى ، ولقد أشار « الشيخ الأكبر » في كتابه
« الفتوحات » الى هذه الرحلة بقوله يمجده أحد أخوانه الذى
سره منه حسن بره بأمه وعنايته بها : « أعرف ذلك الشخص
بعينه وصحبته وكان يعظمنى ويرى لى كثيرا ، واجتمعت به في
« دمشق » وفي « سيواس » وفي « ملطية » وفي « قيصرية » ،
وخدمنى مرة ، وكانت له والدته كان بارا بها ، واجتمعت به في
« حران » في خدمة والدته ، فما رأيت من يبر أمه مثله ، وكان ذا
مال ، ولى سنون فقدته من دمشق ، فما أدري هل عاش
أو مات » (١) .

وفي عام ٦٠٨ التقى « بالشهاب السهروردى » في بغداد « حين
رحل اليها بعد انتهاء رحلته في « آسيا الصغرى » مارا « بدنيسر »
في ديار بكر ، وشاهد ماء الفرات وقد جمد تحت برد الشتاء
القارس في أقصى الشمال حتى عاد « أرضا تمشى عليه القوافل
والناس والدواب ، والماء تحت ذلك الجليد حار » (١) .

و « السهروردى » كان في ذلك الوقت شيخ الصوفية في
« بغداد » ، وقد وصل في التصوف الى منزلة لا تدانيها منزلة ،
ولذلك كان حرص « ابن عربى » على لقائه شديدا .

والصوفية لهم تقاليد خاصة في مقابلاتهم ، وهى تختلف من
شخصية الى أخرى ، ولكنها تقاليد لها احترامها ، فمن تقاليد
بعضهم في اللقاء الصمت ، ولكنه صمت أبلغ من الكلام . وهذا
ما حدث بين « ابن عربى » و « السهروردى » حين تقابلا ، كان

(١) ابن عربى ص ٦٨ .

بينهما صمت باللسان ، ولكن كان هناك تخاطب بالجنان ، خرست
الآلفاظ وتحدثت للناظر ، ومكثنا هكذا مدة طويلة ، وانصرف كل
منهما دون أن ينبس ببنت شفة • وحين سئل « ابن عربى » عن
« السهروردى » بعد ذلك أجاب بأنه : مملوء سنة من فرقه الى
قدمه • ولما سئل « السهروردى » : ما تقول فى « ابن عربى » ؟
قال : انه بحر الحقائق (١) •

و « السهروردى » هو شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد
ابن عبد الله بن عمرو بن محمد « السهروردى » كان امام وقته
لساننا وحالا ، ولد سنة ٥٣٩ هـ وتوفى « ببغداد » سنة ٦٣٢ هـ
ومن شعره الذى يدل على صفاء روحه قوله على طريقة الرمز
بالخمر :

لا تسقنى وحدى فما عودتنى
أنى أشح بها على جلاسى
أنت الكريم ولا يليق تكريما
أن يصبر الندماء دون الكاس

وارتفعت منزلة « ابن عربى » فى « بغداد » ارتفاعا عظيما ،
وكثر التلاميذ من حوله ، وتطايرت شهرته الى كل مكان ، ولعله
وجد فى « بغداد » أنسبا روحيا جعله يركن الى الاستقرار فيها
فترة من الزمن ، قبل أن يتركها عائدا الى « مكة » فى سنة ٦١١ هـ •

ولم يبق فى « مكة » طويلا ، ففى رمضان سنة ٦١٢ هـ سافر
الى « قونية » مرة أخرى ، ثم تركها الى « حلب » فى السنة التى
تليها ، وصادف لدى أميرها تكريما عظيما جعله مقصد أصحاب
الحاجات والمظالم •

(١) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٦ •

وسافر الى « حمص » حيث وجد تكريم سلطانها له لا يقل عن تكريم غيره من الملوك والأمراء الذين سعدوا بلقاء « ابن عربى » في ممالكهم ، وأراد « أسد الدين شيركوه » سلطان « حمص » أن يظفر بإبقائه عنده نهائيا ، بأن يجعله يتخذ من « حمص » دار اقامة له ، فأمر له بعطاء يومى يقدر بمائة درهم ، ولكن كيف يقبل العصفور الطليق البقاء في قفص ولو كان من ذهب ؟

ولو كان « ابن عربى » هدفه الدنيا وطلب الأمان لوجد ضالته في كل مكان ذهب اليه وحل به ، ولكنه كان قد ملك عنان الزهد ، وانصرف بكليته عن الدنيا التى نظر اليها من وجهة نظر القرآن الكريم حيث يقول : « اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ٠٠ » (١) فلم يلبث أن انطلق كعادته محلقا في فضاء الكون الواسع تصرفه القدرة حسبما تريد ، غادر « حمص » سائحا فمر « بملطية » وهناك ولد له غلام فى رمضان سنة ٦١٨ هـ .

ولكن هذه الحياة المضيئة والتجوال المستمر والجهد المتواصل ، فى ظل نظام صارم من الزهد والتقشف وملازمة العبادة والسهر كان لكل ذلك أثر كبير فى توجه الشيخ الأكبر الى « دمشق » ليستقر نهائيا بها منذ سنة ٦٢٠ هـ . حتى وافته منيته المحتومة ، فلبى نداء ربه الكريم وسعد بجواره هنيئا فى سنة ٦٢٨ هـ .

وقد كان اختياره « دمشق » لتكون مقرا نهائيا له اختيارا مبنيا على هدى من توجيه الرسول الكريم — صلوات الله عليه وسلامه — الذى ثبت عنه أنه قال : عليكم بالشام ، فانه خيرة الله من أرضه واليها يجتنبى خيرته من عباده (٢) .

(١) سورة الحديد ٢٠ .

(٢) ابن عربى ص ٨٥ والعبارة منقولة من الفتوحات ج ٤ ص ٤٦٩ .

وفي دمشق بشره النبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق أمنيته في اخراج « فصوص الحكم » الذي يقول في مقدمته : « ٠٠ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مباشرة أديتها في العشر الآخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق ، وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب ، وقال لى : هذا كتاب فصوص الحكم ، خذه واخرج به الى الناس ، ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله وأولى الأمر منا » (١) .

حياة حافلة :

على أن استقرار الشيخ الأكبر في « دمشق » لم يكن يعنى خلوده الى الراحة فقد ظل شاكفا على مجاهداته في العبادة وتأليفه في علوم التصوف حتى آخر نفس من حياته ، وبذلك يمكن أن ندرك أن حياة « ابن عربى » كانت حافلة بجلال الأعمال منذ الأيام الأولى حتى الأيام الأخيرة منها .

لقد كانت هذه الحياة سلسلة متواصلة الحلقات من الرحلات التى لم تكد تنتهى واحدة منها حتى تبدأ أخرى ، ولم تكن هذه الرحلات الا هادفة دائما الى تحقيق اغراض كريمة ، وفي مقدمتها تحصيل المعارف أو لقاء الشيوخ أو تربية المريدين ، وفي اثناء ذلك كانت تظهر له مؤلفات نافعة تنم عن عبقرية فريدة في نوعها .

واذا تتبعنا خطوات سياحته يمكن أن نقف على أحداث هامة في حياته ارتبطت بهذه السياحات ارتباطا بالأسباب بمسبباتها . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

١ - كانت رحلته الى مكة في فترات المتعاقبة موحية له بتأليف

(١) شرح القاشانى على فصوص الحكم ص ١٠ .

كتب من أهم كتبه التى كان لها دوى هائل فى الأوساط العلمية والصوفية والأدبية .

منها « ترجمان الأشواق » الذى ألفه فى سنة ٥٩٨ هـ ، وتذكر دائرة المعارف الاسلامية عنه ما يأتى : « وتعرف «ابن عربى» أثناء اقامته بمكة عام ٥٩٨ هـ بامرأة عالمة من تلك المدينة ، ولما عاد الى مكة عام ٦١١ هـ نظم مجموعة صغيرة من الأشعار الغزلية أشاد فيها بعلم هذه المرأة وجمالها الفتان وما كان بينه وبينها من حب ، وفى العام التالى رأى أنه من المفيد أن يتبع أشعاره بشرح صوتي ، وقد نشر هذه الأشعار وشرحها وترجمها الى الانجليزية نيكلسون » (١) .

ولكن الحقيقة أن هذه القصائد ألفت فى عام ٥٩٨ هـ ، وليس فى عام ٦١١ هـ ، وأن الشرح هو الذى كان فى عام ٦١١ هـ . يذكر ذلك « ابن عربى » نفسه فى مقدمة « ذخائر الأملق شرح ترجمان الأشواق » حيث يقول : « لما نزلت مكة سنة خمس مائة وثمان وتسعين ألفيت بها جماعة من الفضلاء . . ولم أر فيهم مع فضلهم مثل الشيخ العالم الامام بمقام ابراهيم عليه السلام نزيل مكة مكين الدين أبى شجاع . . وكان لهذا الشيخ رضى الله عنه بنت عذراء طفيلة هيفاء تقيد النظر وتزين المحاضر وتحير المناظر تسمى « بالنظام » من العابدات العالمات السائحات الزاهدات شبيخة الحرمين . . فراعينا فى صحبتها كريم ذاتها مع ما انضاف الى ذلك من صحبتة العممة والوالد فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب احسن القلائد » (٢) .

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة ابن عربى ج ١ .

(٢) ذخائر الاملاق فى شرح ترجمان الاشواق ص ٤ .

وقد أثبت ذلك « آسسين بلاثيوس » في كتابه « ابن عربى » حيث يقول : « انه في نفس السنة سنة ٥٩٨ بلغ الغاية من رحلته ، اذ بلغ مكة وسرعان ما ذاع صيته في هذه المدينة المقدسة ، وبنا العلماء والصالحون يتوددون اليه ، ومن بين هؤلاء الامام الموكل بمقام ابراهيم واسمه « أبو شجاع » الذى انعقدت بينه وبين « ابن عربى » مودة وثيقة ، وكانت لهذا الامام بنت ذات جمال . فألححت الى ابن عربى بموضوع كتاب من أشهر كتبه هو ترجمان الأشواق . ثم يقول : نراه في سنة ٦١١ هـ لا يزال في مكة عاكفا على عبادته المعتادة في الكعبة ويكتب شرحه على ترجمان الأشواق » (١) .

ولسنا بصدد الدفاع عن « ابن عربى » في قصائده تلك التى أثارت حوله ثائرة الفقهاء والمتشككين ، فان حياة الشيخ الأكبر نفسها تضعه فوق مستوى أى شبهة من الشبهات وتداقع عنه ، والمنهج السلوكى الذى اختاره لنفسه قد جعله زاهدا في كل متعة من متع الحياة رخصت أو غلت ، وليس من المستساغ أن يقبل هذا السائح الرامى بقصده الى الله أن يتغزل غزلا حسيا في فتاة كان هو في ضيافتها وضيافة أبيها ، فان لم يتناف هذا مع صلاحه وصلاحها فانه يتنافى مع طبيعته كمربى جواد شهم فتى ينتسب الى أرقى أرومة من أرومات العرب مجدا واباء وشهامة ، وهى أرومة طيبة .

وان هذه الخواطر التى حاكتها أخيلة المهاجمين هى التى جعلته يسارع في تأليف شرح لهذه القصائد الصوفية الغزلية ، التى نحا فيها منحى الرمن الصوفى الذى دأب الصوفية على

(١) ابن عربى ص ٥٧ .

استعماله منذ أن تطور التصوف الى انذواق ومواجيد وانطلق الصوفية بعواطفهم نحو الله ، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يصرحوا بذلك فرمزوا عن حبهم لله بالغزل الحسى ضناً بأسرارهم وحفاظاً على معانيهم ، ولذلك نرى ابن عربى يقول : « وقد شرحنا من ذلك نظماً لنا بمكة سميناه ترجمان الأشواق وشرحناه فى كتاب سميناه الذخائر والأعلاق بسبب اعتراض بعض فقهاء حلب علينا ، فى كوننا ذكرنا أن جميع ما نظمناه فى هذا الترجمان انما المراد به معارف الهية وأمثالها ، فقال : انما فعل ذلك لكونه منسوباً الى الدين ، فما أراد أن ينسب اليه مثل هذا الغزل والتشبيب ، فجزاه الله خيراً لهذه المقالة » فانها حركت دواعينا الى الشرح فانتفع به الناس ، فأبدينا له ولأمثاله صدق ما نوبناه وما ادعينا ، فلما وقف على شرحه تاب الى الله من ذلك ورجع » (١) .

ولكن الدكتور زكى مبارك يتابع دائرة المعارف الاسلامية فى فهمها عن ابن عربى من أنه كان يقصد الغزل الحسى ، وذلك فى كتابه التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ويقول : انه حين أراد أن يوجه هذه القصائد وجهة صوفية ارتكب كثيراً من التعسف ، وهذا القول له خطورته ، فابن عربى مصدق فى قوله ، ووقائع حياته تؤيده يقول الأستاذ محمد إبراهيم الجيوشى : « ومن البين لكل من له صحبة فى الشعر الصوفى أنه يتعذر كثيراً على دارسه التمييز بين هذا الضرب من الشعر وبين الشعر الغزلى ، هل هذا قليل فى معشوقة من البشر أو منشودة من السموات ؟ حتى أن ابن عربى اضطر الى كتابة شرح لتوضيح الغرض من أشعاره ولازلة ما علق بالأذهان من أنها قيلت تشبيهاً بامرأة » (٢) .

(١) ابن عربى ص ٧٥ .

(٢) بين التصوف والأدب لمحمد إبراهيم الجيوشى ص ٨٢ .

ولو صح قول الدكتور زكى مبارك عن ابن عربى لصح إطلاقه على كل شاعر صوفى له شعر غزلى ، ولصح عن رابعة العدوية التى يطلق عليها شهيدة العشق الالهى أن معشوقها انسان فى تلك الأشعار الرائعة التى وقفت أنفاس المحبين حولها لاهثة .

وليس هناك تعسف فى شرح ترجمان الأشواق ولكنها المعانى العميقة والأسرار الالهية التى مازالت تجد صيانتها فى قلم ابن عربى عن الابتذال رغم الشرح . وستظل كذلك فى صون وحفاظ حتى ولو وضع حولها الشارحون ألف شرح وشرح .

ومن كتبه الهامة فى « مكة » الفتوحات المكية الذى يقول عنه الشعراى : انه بعد أن ألفه وضعه فوق الكعبة عاما كاملا ، ثم بعد ذلك تناوله فوجده بالحالة التى وضعه عليها لم تؤثر فيه شمس ولا أمطار ولا رياح (١) .

ويعتبر تأليف هذا الكتاب صدق لما وصل اليه « ابن عربى » من منزلة روحية عظيمة وكما يقرر هو أن ما ورد فيه كان فيضاً الهيا لقاء الله فى روعه فترجم عنه فى هذه الأجزاء الضخمة ذات الستين والخمسمائة فصل .

وكتاب الفتوحات - الذى نرجو أن نتحدث عنه فيما بعد - له أثره الخطير بين الصوفية ويعد من الكتب الرئيسية فى علم التصوف .

٢ - مجيئه الى « مصر » فى سنة ٦٠٣ هـ كان سببا فى إثارة ثائرة الفقهاء عليه حتى أوغروا عليه صدر السلطان العادل ، وهموا بأن يبطشوا به لولا أن قبض الله له من كان سببا فى أنقاده من هذه الفتنة التى أوشتكت أن تعصف به .

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٢ .

وقصة ذلك انه حين قدم القاهرة نزل في دار بها جماعة من الصوفية في « زقاق القناديل » والتأم شمل هؤلاء حول ذكر الله والتزام عبادته على نحو خاص أدى الى ظهور بعض الخوارق على أيديهم ، وفي ليلة انبعثت من أجسام الذاكرين أنوار مضيئة بددت ظلام الحجرة ورأى « ابن عربى » شخصا يخاطبه بلسان عذب فصيح قائلا : « اعلم أن الخير في الوجود والشر في العدم ، أوجد الانسان بجلوه وجعله وحدانيا في وجوده ، تخلق بأسمائه وصفاته وفنى عنها بمشاهدة ذاته ، قرأى نفسه بنفسه وعاد العدد الى أسه فكان هو ولا أنت » .

وقد فهم « ابن عربى » هذه الاشارات وحاول أن ينظم حولها شعرا يترجم عن معانيها ، ويبدو أن عوام الصوفية لم يدركوا جلال هذه المعانى فنقلوها عقوا أو تباهايا الى أسماع الفقهاء الذين يغارون على السنة ، ولعل ما كان قد شاع من أشعار ترجمان الأشواق قبل كتابة شرحها قد وصل أيضا الى أسماع هؤلاء قاضيف هذا الى ذاك ، وأوصلوه الى الملك العادل متهمين « ابن عربى » بالكفر والثبور وعظائم الأمور ، طالبين منه اهدار دمه حتى يكون عبرة لغيره .

ولكن الغريب أن « ابن عربى » لم يتأثر بذلك ولم يتزعزع إيمانه، وكان ذلك بسبب توقعه لما يحدث له وتوطينه النفس على الصبر على ذلك . جاء في شذرات الذهب : « وقد أودى الشيخ كثيرا في حياته وبعد مماته بما لم يقع نظيره لغيره ، وقد أخبرهم عن نفسه بذلك . وذلك من غرر كراماته . فقد قال في الفتوحات : « كنت نائما في مقام ابراهيم ، وإذا بقاتل من الأرواح يقول لى عن الله : ادخل مقام ابراهيم انه كان أواما حليما ، فعلمت انه لا بد أن يبتلىنى بكلام فى عرضى من قوم فأعاملهم بالحلم قال : ويكون اذى كثيرا فانه جاء بحليم بصيغة المبالغة ، ثم وصفه بالأواه ، وهو من يكثر التأوه لما

يشاهد من جلال الله» (١) وقد وطن الشيخ الأكبر نفسه على الصبر لهذا الأذى حتى يكون جديرا بالتخلق بمقام الخليلية .

يقول مؤلف كتاب « ابن عربى » ومن حسن الحظ في هذه المناسبة أن هذه الاتهامات لم تلق أذنا سميعة عند الملك العادل لسياسته الحرة السمحة ، وكانت توصية من جانب الشيخ أبى الحسن البجائى صديق ابن عربى ، كانت هذه التوصية كافية لتفسير مذهب ابن عربى في وحدة الوجود تفسيرا رمزيا فأمر بإطلاق سراحه» (٢) .

ولم تثن هذه المحنة عزيمة « ابن عربى » ولم تعقه عن طريقه ، لأنه عرف هذا الطريق وأدرك نهايته وابقن بسلامته ، واستهان بكل خطورة فيه .

هل التقى ابن عربى بابن الفارض ؟ :

شئ آخر في مصر يعد من الأحداث الهامة في حياة الشيخ الأكبر ذلك هو لقاءه بابن الفارض .

كان ابن الفارض معاصرا لابن عربى ، وان اختلف موطن كل منهما . فقد ولد ابن الفارض في مصر سنة ٥٧٦ هـ ونشأ بها في ظل الدولة الأيوبية ورحل الى مكة وقضى بها خمسة عشر عاما ، رجع بعدها الى القاهرة حيث مكث بها حتى وافته منيته سنة ٦٣٢ هـ بعد أن بلغ في العلوم اللدنية والصوفية مبلغا كبيرا ، وقد ضمن خلاصة معرفته أشعاره التى سرت مسرى الشمس ، ووضع حولها الشراح كثيرا من الشروح والتعليقات وأطلق عليه من أجلها « سلطان العاشقين » وكان أهم أشعاره قصيدته « نظم السلوك » (٣) .

(١) شلوات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) ابن عربى ص ٦٥ .

(٣) راجع عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ١٢٠ ، ١٢٧ .

ولقد أشارت بعض المصادر اشارات طفيفة حول امكان هذا اللقاء ، فقالت : ان محبى الدين بن عربى طلب من ابن الفارض ان يأذن له فى شرح تأنيته الكبرى فأجاب ابن الفارض : بأن كتابك الفتوحات المكية شرح لها ، ومن هذه المصادر ما نقله المقرئ فى نفح الطيب عن « المقرئى » فى ترجمته لعمر بن الفارض (١) .

ولكن تفصيلات هذا اللقاء لم يتعرض لها أحد ، حتى يمكن معرفة الزمان والمكان وبقيّة ما دار بين هذين الشيخين من حديث ، مما جعل بعض المهتمين فى العصر الحديث بدراستهما يغفلون هذه الحادثة اطلاقا ، كما فعل « أسين بلاثيوس » فى ترجمته « لابن عربى » فانه برغم تعرضه لبعض التفصيلات الدقيقة لحياته لم يتعرض لذكر واقعة لقائه بابن الفارض ، وان كان قد ذكر عن « ابن الفارض » انه بلغ مرتبة عليا فى التصوف والارتفاع فى قلوب المسلمين ، وذلك حينما تحدث عن شهرة « ابن عربى » « الذى طبقت شهرته بلاد المشرق كلها ، لا يناقسه فى شهرته غير صوفى آخر معاصر له هو عمر بن الفارض الشاعر المصرى الصوفى المشهور » (٢) .

ويجوز ان يقال : ان منهج « أسين بلاثيوس » فى ترجمته لابن عربى يعتمد على ابن عربى نفسه فى كتبه ، ولا سيما كتاب الفتوحات لأنه يقول فى مقدمة كتابه : « حياة الصوفى المرسى ابن عربى وهى موضوع القسم الأول من هذه الدراسة قد استخلصناها مما ورد من نصوص تتعلق بحياته فى كتبه خصوصا فى كتاب الفتوحات المكية ، ودون أن نهون من شأن المعلومات القليلة التى يقدمها لنا من ترجموا لحياته فأننا نعتقد أن ما قدمه لنا ابن عربى نفسه أكبر أهمية » .

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠٧ .

(٢) ابن عربى ص ٨٥ .

و «ابن عربى» لم يتحدث عن هذا اللقاء بينه وبين «ابن الفارض» كما تحدث عن غيره من اللقاءات التي تمت بينه وبين شيوخ كثيرين . وكما اغفل « أسين بلاثيوس » هذه الواقعة انكرها غيره من المستشرقين مثل « نيكلسون » « وماسينيون » يذكر ذلك الدكتور محمد مصطفى حلمى قائلا : « ومن هنا ذهب المستشرق الانجليزى نيكلسون الى أن ابن الفارض وابن عربى لم يلتقيا قط ، كما ذهب الى مثله المستشرق الفرنسى الأستاذ ماسينيون ، وذلك فى محاضرة القاها بقاعة الجمعية الجغرافية عن ابن الفارض والششترى فقد استبعد أن يكون ابن عربى فى زيارته لمصر قد عرف ابن الفارض ، وإن كان كل منهما قد أحس بوجود صاحبه فى عالم الشعر والتصوف » (١) .

والدكتور مصطفى حلمى يذكر ذلك بعد قوله : « نحن لا ننكر زيارة ابن عربى لمصر أو المامه بها ، ولكن الذى لا نستطيع التثبت منه هو أن يكون ابن عربى قد التقى حقا بابن الفارض ونشأت بينهما صلة شخصية تبودلت فيها الآراء الصوفية والأذواق الروحية ، اذ ليس ثمة ما يثبت هذه الصلة اثباتا قاطعا » .

ونحن لا يمكننا اضافة شئ جديد الى ذلك ، ولكن يمكن أن نذهب الى رأى الذى يثبت امكانية هذا اللقاء وحدوثه ، مستمدين من حرص «ابن عربى» الزائد على لقاء الشيوخ دليلا قويا على حدوث هذا اللقاء ، فان المتتبع لرحلات هذا الشيخ الجليل يرى مدى شغفه بالتعرف الى رجال الوقت من الصوفية ، وفى كل مكان يحل فيه يبحث عن من يرى انهم محل نظر الله فى الأرض . وابن الفارض لم يكن شيخا مغمورا من شيوخ الصوفية ، ولكنه كان علما من اعلامهم تشدد اليه المرحال من كل مكان ، فليس من المعقول ان تسنح لابن عربى فرصة ثمينة كهذه ولا يغتنمها وهى فرصة وجوده فى القاهرة .

(١) ابن الفارض سلطان الماشقين ص ٩١ .

على أن هذا اللقاء قد لا يكون حدث في القاهرة ، إذ من الجائز حدوثه في مكة ، ونحن نعلم أن ابن الفارض « قضى في ظل الحجاز أكثر أيامه اشراقا بأنوار الفتح فيما بين سنتي ٦١٣ هـ و ٦٢٨ هـ في أواخرها أو ٦٢٩ هـ في أوائلها » (١) وابن عربى يقينا كان يلم كثيرا بمكة في السنين قبل رحيله نهائيا الى دمشق سنة ٦٢٠ هـ ، ففي هذه السنوات السبع السابقة على استقراره في دمشق لا يبعد أن يكون قد حدث لقاء بين الشيخين العظيمين ، ولعل ذلك هو الأرجح ، فإن ابن الفارض قبل رحيله الى الحجاز لم يكن قد ألف بعد « تائيته الكبرى » التى يعتبر أن الفتوحات المكية شرح لها .

أما اغفال « ابن عربى » قصة هذا اللقاء فذلك سر من أسرار الصوفية يظهر في تصرفاتهم الغريبة في بعض الأحيان ، وقد يكون هذا الاغفال متعمدا من جانب « ابن عربى » لأن هناك من الأحاديث التى دارت بينهما ما لا يمكن الإباحة به أو الخوض فيه بين شخصين أحدهما سلطان العارفين والآخر سلطان العاشقين ، وبين العشق والمعرفة تدق الأسرار وتتوه الأفكار .

إن هذا اللقاء ممكن من غير شك ، وكل ما أمكن أن يسجل منه هو هذا الحوار القصير الذى لا يؤدي الى هتك سر أو كشف حجاب . هذا الحوار الذى دار حول شرح التائية الكبرى وأن الفتوحات المكية خير شرح لها .

والتائية الكبرى قصيدة طويلة اسمها « نظم السلوك » وكانت ثمرة من ثمرات الوجد والغية والدهش وغيرها من الأحوال الصوفية التى كانت تعرض لنفس ناظمها وتعتبر ترجمة ذاتية لحياة الشاعر الروحية (٢) ، وهى بوصفها هذا يمكن أن يصدق عليها قول

(١) عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ٩١ .

(٢) عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ٢١٣ .

ابن الفارض لابن عربى : كتابك الفتوحات المكية شرح لها • لأن الفتوحات تتجه هذا الاتجاه وفيها بيان توضيحي لما كان يمر به الشيخ الأكبر من مراحل روحية وأدواق وجدانية •

منزلته لدى الملوك والأمراء :

ويمكن للمعتب حياة هذا الرجل العجيب الذى قضى حياته كلها منهكا جسمه وقواه فى رحلات دائبة مستمرة ، أن يدرك مدى الأحداث الهامة فى حياته التى لم تخل من حيوية دافقة وحماس علمى بالغ وانتاج خصب وفير فى كل المعارف الصوفية التى قبلت فى بعض الأحيان بالانكار والمعارضة ، وقد رأينا لونا منها فى اثناء مروره بالقاهرة ، والتى اشتدت فيما بعد حتى حرضت الناس على عدم مطالعة كتبه وقراءتها بل ونادت باحراقها ، وقد أدى ذلك الى ضياع كثير من مؤلفاته التى لم يبق منها الا اقل القليل •

ولكن حياته مع ذلك كانت مباركة عامرة زاخرة بجلال الأعمال ، وقد بلغ الشيخ الأكبر لدى الملوك والأمراء منزلة عالية ، وصل اليها بالزهد ، وقد ورد عن الصوفية هذه الحكمة الخالدة : ازهد فيما فى أيدي الناس يحبك الناس • وكان « ابن عربى » كذلك ، فقد وجد الملوك فيه نموذجا فريدا غير ما كانوا يرونه من العلماء والفقهاء ، ففى الوقت الذى يتنافس فيه هؤلاء للتقرب الى أولى الأمر وأصحاب السلطة ، طمعا فيما ينالونه منهم من مغنم مادية أو أدبية ، كان هو ينفر من ذلك ، وقد وطد نفسه على الفرار من كل قيد يقيد حريته ولو كان هذا القيد من ذهب • يضاف الى هذا عدم تحرج بعض العلماء فى اكتساب المال ولو كان على حساب الدين ، فى حين ان الشيخ الأكبر كان يعمل للدين حسابه ويرعى له حرمة وقداسته ، وكيف لا يكون كذلك وهو الذى أفنى حياته على أساس قواعده فى الوصول الى حقيقة المعرفة ؟ •

ولنضرب مثلاً على ذلك حتى لا يظن أن هذا الكلام يطلق على عائلته : بلغ « ابن عربى » فى نفس الملك الظاهر غازى صاحب مدينة حلب ، منزلة عظيمة ، وأصبحت له كلمة مسموعة لديه فى الشفاعة لأصحاب الحاجات ، وكان الملك يقصده كثيراً فى منزله ، وقد رفع إليه « ابن عربى » فى مجلس واحد مائة وثمانى عشرة حاجة قضاهما الملك جميعها لأصحابها ، ومنها الاستشفاع لشخص كان متهما بتدبير مؤامرة لاغتيال الملك نفسه ، وكان من جملة بطائنه فعفا عنه أكراما لشفاعة محبى الدين بن عربى فيه .

وقد غطى جلال الشيخ الأكبر على كل ما كان للعلماء والفقهاء من نفوذ فى بلاط ذلك السلطان وكان هؤلاء لغلبة الهوى فى نفوسهم « قد تركوا المحجة البيضاء وجنحوا الى التأويلات البعيدة » ليحققوا ما يريده الملوك من أغراض لهم فيها هوى محاولين بذلك الاستناد الى نصوص شرعية رغم أن هذه الفتاوى التى يصدرونها ربما لا يعتقدونها ، ولقد صرح الملك « غازى » لابن عربى : بأن الأمور التى تنكرونها على ما أقدمت على منكر منها — رغم علمى بنكرانه — الا بفتوى فقيه وخط يده يشهد على ذلك . وقد بلغ من جرأة أحدهم أن افتاه بأنه يجوز له أن يفطر فى شهر رمضان ويكفيه أن يصوم أى شهر فى السنة ، فليس رمضان بالذات هو الذى فرض على الناس صومه « (١) » .

ومن العجيب أن يتهم أمثال هؤلاء الفقهاء « ابن عربى » واضرابه ممن هم على الجادة بالزيف والفساد والزندقة ، ويبرثون أنفسهم من هذه التهم التى هم أولى بها منهم .

وقد مر بنا كيف أن ملك « قونية » كيكائوس الأول خرج

(١) راجع ابن عربى ص ٧٨ وما بعدها .

بنفسه لاستقبال ابن عربى واكرمه وبالحق فى اكرامه واهداه دارا نفيسة تقدر بمائة ألف درهم (١) .

أما صاحب حمص « أسد الدين شيركوه » فقد أكرم مقدمه وأراد أن يستبقيه عنده ورتب له كل يوم مائة درهم (٢) .

أما الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل الأيوبي صاحب دمشق ، فقد كان له شرف جوار الشيخ الأكبر فترة طويلة تقدر بحوالى ثمانية عشر عاما ، وقد أكرم هذا الملك « ابن عربى » اكراما كبيرا ، وكان ينظر اليه نظرة المريد الى أستاذه ، وقد أذن له « ابن عربى » أن يروى عنه كتبه . نقل المقرئ عن الفيروزبادى : « وقفت على أجازة كتبها للملك المعظم ، فقال فى آخرها : وأجزته أيضا أن يروى عنى مصنفاتى ومن جعلتها كذا وكذا حتى عد نيفا وأربعمائة مصنف » (٣) .

وقد حاول ملك « قونية » استقدامه مرارا اليه ، وكان يكتب اليه يستشيره فى كثير من الأمور ، وكان « ابن عربى » يرد عليه بما يراه صالحا للمسلمين ، ومن ذلك مثلا هذه الرسالة التى كتبها ووردت فى الفتوحات : « عليك بمراعاة كل مسلم من حيث هو مسلم ، وساو بينهم كما سوى الاسلام بينهم فى أعيانهم ، ولا تقل : هذا ذو سلطان وجاء ومال كبير وهذا صغير وفقير وحقير ، ولا تحقر صغيرا ولا كبيرا فى نعمته ، واجعل الاسلام كله كالشخص الواحد ، والمسلمين كالأعضاء لذلك الشخص ، وكذلك هو الأمر فان الاسلام ما له وجود الا بالمسلمين كما أن

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٣) نفع الطيب ج ٧ ص ١٣٦ .

الاسلام ما له وجود الا بأعضائه وجميع قواه الظاهرة والباطنة» (١) .

ومن هذه الرسالة يبدو مدى حرص « ابن عربى » على مصلحة المسلمين ، كما يبدو منها اخلاص النصيح للملك الذى كان يلجأ اليه مستشيرا فكان يجده دائما عند حسن ظنه ، ويرد عليه بما يعينه على سياسة رعيته واصلاح شأن المسلمين .

ولم يكن « ابن عربى » يرهب الخلفاء والحكام ، لأنه كان مؤيدا بصورة الحق ونور المعرفة بل كان الأمر بالعكس ، فقد كانوا هم الذين يرهبونه ويعملون له ألف حساب ، لشخصيته هو أولا ثم لقوة نفوذه بين أتباعه ومريديه ، وما كان « ابن عربى » من الأشخاص المغامرين الذين يفكرون فى احداث ثورات أو اضطرابات ضد أولى الأمر ، ولكنه كان زاهدا متواضعا مطيعا ، منفذا لأمر الله فى طاعة أولياء الأمور . وهو بما أعطاه الله من بصيرة أصبح لزاما عليه أن يقوم بواجبه الدينى كاملا بما فى ذلك المشاركة فى اسداء النصيح والتوجيه الكريم لمصلحة الاسلام والمسلمين كما رأينا فى رسائله العديدة ونصائحه المختلفة للملوك .

حدث مرة فى بغداد أن كان يسير بين طائفة من تلاميذه ، ومر عليهم الخليفة فى موكبه ، فأمر « ابن عربى » أتباعه ألا يبدعوا بتحية الخليفة جريا على العادة التى كانت متبعة ، فانصاعوا لأمره ، حتى حاذاهم الخليفة فبدأهم هو بالسلام فردوا عليه .

وابن عربى لم يكن يريد من ذلك الانتقاص من قدر الخليفة ، ولكنه أراد أن يعيد الى المسلمين تقليدا شرعيا فى التحية تناساه الناس أمام جبروت الخلفاء . ذلك التقليد هو أن يبدأ الصغير الكبير ، والراكب الماشى ، والماشى الجالس بالتحية ، وقد كان

(١) ابن عربى ص ٧٤ .

ال خليفة ممتطيا صهوة جواده وهم راجلون ، فيجب على الخليفة أن يكون هو البادئ بالتحية بناء على هذا الأدب العالى الذى وضعه الاسلام •

على أن هذه المنزلة التى لقيها « ابن عربى » فى المشرق لدى الخلفاء ، كان يقابلها بعض التحفظ من ملوك المغرب ، ويمكن تحليل ذلك بأن السلطة فى ذلك الوقت كانت فى يد المرشدين ، وكانوا بصدد تكوين دولتهم فى الأندلس وتوطيدها فى إفريقيا ، ومنشئو الدول عادة يقفون من كل من يظن له نفوذ موقف التحفظ ، لا سيما وهم يدركون أن للدين سطوته ورهبته ، وأن التصوف بخاصة يحمل أصحابه على التضحية والفداء ، وهم لا يريدون إثارة الحمية الصوفية فى النفوس ، حتى لا تتحول مع الزمن الى ثورة عاتية ربما تقضى عليهم وتبدد دولتهم • هذا سبب . وسبب آخر هو أن سلطة الفقهاء فى ذلك الوقت كان لها تأثير مضاد ضد الصوفية ، وهم ما زالوا يحملون لواء الخصومة للتصوف وأنصاره ، وقد استطاعوا بتأثيرهم أن يوغروا صدر السلطان ضد شيخ من شيوخ التصوف هو « أبو مدين » وقد أراد ابن عربى أن يزيل ما ألصق بهذا الشيخ المجاهد من اتهامات زينها له الفقهاء فدارت بينه وبين السلطان « يعقوب المنصور » مناقشة فى شأنه انتهت على غير ما كان يرجو « ابن عربى » فخرج غاضبا من عنده •

على أن ما فقدته الشيخ الأكبر من منزلة لدى هؤلاء لم يكن له أدنى تأثير فى نفسه ، وقد عوضه الله عن ذلك بما هو أعز وأرفع لدى جميع ملوك أهل المشرق • حتى اذا ما قضى وجد هؤلاء الملوك أنفسهم ملزمين بأن يتابعوا واجبهام نحوه ، فأولوا مدفنه

عناية فائقة ، وتعهد بذلك الخلفاء المتعاقبون على دمشق وبخاصة العثمانيون الذين جددوا هذا المزار مرارا . وكان لهم في الشيخ الأكبر اعتقاد خاص . يذكر الشعراني سببه وهو تنبؤه بسلطان العثمانيين (١) . وقد أجريت عليه الأوقاف وأصبح مزارا مشهورا يقصده الناس من كل مكان . وبنى عليه السلطان سليم خان مدرسة عظيمة (٢) .

(١) طبقات الشعراني ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١٤٩ .

أخلاقه

أفنى الشيخ الأكبر حياته في الطريق الصوفي حتى وصل الى غايته ، ومبنى الطريق الصوفي قائم على الأخلاق ، ولعناية التصوف بها جعلها أساسا ووسيلة وغاية ، والصوفية يحكمون على مراتب بعضهم بما يرونه من أخلاق ، لذلك يقولون : كل من زاد عليك في خلقه زاد عليك في تصوفه • ويضعون للتصوف تعريفات مختلفة لا تخرج في مجموعها عن التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل •

والشيخ الأكبر رائد عظيم من رواد هذا الطريق الذى نظر اليه المتصوفة وغيرهم نظرة اكبار واعظام ، وغنى عن القول بان هذه المنزلة وصل اليها بما كان عليه من استقامة على الجادة وصدق في الطلب وودع كامل بلغ الى حد لا يمكن أن يصل اليه الا من ندر وأخلاق كريمة حبيت فيه الخاص والعام •

وقد كان لنشأته الأولى في أسرة صالحة تقية الى جانب أرومته النقية الى جانب مصاحبته كل من صاحبه التوفيق اثر كبير في تلك النفحات العطرة الكريمة التى تضجوع بها هذه الشخصية المحببة •

والشيخ الأكبر حقيق بهذا الوصف الذى وصفه به
« ابن مسدى » انه كان جميل الجملة والتفصيل . ولكن هناك
مناقب بارزة فى حياته جديرة بالوقوف عندها قليلا .

فمن ذلك زهده الشديد الذى كان مضرب الأمثال ، ذلك
الزهد الذى رفعه فى أعين الناس . والزهد عند الصوفية منازل
ودرجات . أعلاها الزهد فيما سوى الله ، وقد كان زهد الشيخ
الأكبر من هذا النوع الذى جعله يهجر كل نعمة ويترك كل راحة ،
ويحقر كل لذة . ويضحي بكل غال فى سبيل الظفر بأمنيته .

ولقد توفر المال بين يديه فما أمسك منه شيئا ، ورغب
الملوك والسلاطين فى أن يؤمنوا له حياته ويوفروا له كل أسباب
الراحة والنعمة ، ولكنه رغب عن كل ذلك ، وأطلق نفسه من كل
أسر ، وانطلق يخلق فى الأجواء .

ومرت عليه فترة من حياته زهد فيها معاشرة زوجته عملا
بنصيحة شيخه « المغاورى » التى سمعها من أحد تلاميذه والتى
ينهى فيها عن معاشرة النساء . ولم يقبل عليها بعد ذلك الا امتثالا
لسنة النبى صلى الله عليه وسلم فى أمره باعطاء المرأة حقها من
المعاشرة الحسنة . فهو يقول : « كنت من أكره خلق الله تعالى فى
النساء فى أول دخولى الى هذا الطريق وبقيت على ذلك نحو من
ثمانى عشرة سنة الى أن شهدت هذا المقام ، وكان تقدم عندي خوف
المقت لذلك » ويقصد بالمقام مقام امتثاله لسنة النبى صلى الله
عليه وسلم ودعوته الى الزواج ومعاشرة الزوجة . وخاف على
نفسه المقت لأنه خالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك .
والزهد رأس الفضائل لا سيما اذ كان عن قدرة .

ومن صفات « ابن عربى » الجديرة بالتسجيل كرمه الذى
كان مضرب الأمثال ، وهو كرم متوارث من أسرته الطائفة المشهورة
زكاه دينه وورعه وخلقه وتصوفه . والتصوف لا يمقت شيئا كما

يمقت البخل ، فالله لم يحبب فى شىء بعد الايمان كتحببيه فى
الانفاق والبذل ، ولم ينفر بعد الشرك كما تنفر من البخل
والشح لأنهما من أسباب سوء الخلق •

وكرم « ابن عربى » ارتفع الى درجة الايثار ، وهو أرفع منازل
الجود ، «أمر له ملك الروم فى (قونية) مرة بدار تساوى مائة ألف
درهم فلما نزلها وأقام بها ، مر به فى بعض الأيام سائل ، فقال
له : شىء لله ، فقال : مالى غير هذه الدار ، خذها لك ، فقبلها
السائل وصارت له « (١) •

وكان ينفق عطاءه اليومى جميعه على الفقراء والمساكين وكان
كثيرا قدر بمائة وثلاثين درهما •

ولقد أدرك « ابن عربى » المعنى الصوفى للصدقة ، فانها ليست
مجرد اعطاء للفقير ، ولكن لها معنى أبعد من ذلك ، تعلمه من
شيخه « يوسف الاستجى » الذى يروى عنه هذه القصة :
« وقفت أنا وعبد صالح معى يقال له : يوسف الاستجى على سائل
يقول : من يعطى شيئاً لوجه الله ، ففتح الرجل صرة دراهم كانت
معه ، وجعل ينتقى له من بين الدراهم قطعة صغيرة يدفعها للسائل ،
فوجد ثمن درهم ، فأعطاه اياه ، وهذا العبد ينظر اليه فقال لى :
يا فلان ، تدرى على ما يفتش المعطى ؟ قلت : لا ، قال : على قدره
عند الله • لأنه أعطى السائل لوجه الله ، فعلى قدر ما أعطى لوجهه
ذلك قيمته عند ربه « (٢) •

ويصل الكرم بابن عربى الى درجة التصديق بثواب ما يعمل
من طاعة ، رغبة فى جزاء السيئة بالحسنة ، وهذا منتهى المروءة ،
فان مقابلة الإحسان بالإحسان أمر طبيعى أما مقابلة الإساءة
بالإحسان فذلك أمر لا يكون الا من سوابق الهمم ، ولا يدل الا على
عظم اتساع القلب والارتفاع فوق مستوى البشرية •

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠١ •

(٢) ابن عربى ص ٣٦ •

جاء في نفح الطيب : « قال الشيخ محيي الدين ٠٠ : أنه بلغني في مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت في بأمور عظيمة ، فقلت : هذه قد جعلها الله سببا لخير وصل الى فلأكافئنها ، وعقدت في نفسي أن أجعل جميع ما اعتمرت في رجب لها وعنها ، ففعلت ذلك ، فلما كان الموسم استبدل على رجل غريب ، فسأله الجماعة عن قصده فقال : رأيت « بالينبع » في الليلة التي بت فيها كأن الأفا من الابل أوقارها المسك والعنبر والجوهر ، فعجبت من كثرتة ثم سألت : لمن هو ؟ فقليل : هو لحمد بن عربى يهديه الى فلانة - وسمى تلك المرأة - ثم قال : وهذا بعض ماتستحق .

« قال سيدى ابن عربى : فلما سمعت هذه الرؤيا واسم تلك المرأة - ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم منى ذلك - علمت أنه تعريف من جانب الحق ، وفهمت من قوله : ان هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها ، فقصدت المرأة ، وقلت : اصدقينى ، وذكرتك ما كان من ذلك ، فقالت : كنت قاعدة قبالة البيت وأنت تطوف ، فشكرت الجماعة الذين كنت فيهم ، فقلت في نفسي : اللهم انى أشهدك أنى قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس وكنت أصومهما وأتصدق فيهما ، قال : فعلمت أن الذى وصل منى اليها بعض ما تستحق فأنها سبقت بالجميل والفضل للمتقدم » (١) .

فهذه القصة تفهمنا مسارعة ابن عربى الى اهداء ثواب أعماله الى امرأة سبق الى ظنه - بناء على ما أبلغه - أنها أساءت اليه ، فأراد أن يكافئها على ذلك ، ولو كان ما يهديه اليها شيئا مادياً لكان جديراً بالفضل ، فما بالك حين تعلم أن الهدية ثواب طاعة وهو أحرص ما يكون الانسان عليه ؟ فلن يدل ذلك الا على نهاية المروءة

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٢٧ .

والكرم والايثار يقول المقرئ : « وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة
فما ادخر منها شيئا ، وقيل ان صاحب حمص رتب له كل يوم
مائة درهم وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهما فكان يتصدق
بالجميع » (١) .

والقصة المتقدمة تسلمنا الى فهم آخر في اخلاق « ابن عربي »
هو الاحسان الى من اساء والعفو الجميل الصادر عن قلب صاف
خال من أى ذرة من ذرات الحقد أو الغل أو الكراهية . وهذا أوفى
درجات الحلم .

وقد وطن الشيخ نفسه منذ أن نذر لها للطريق الصوفي أن يكون
مفتاحا للخير مغلاقا للشر ، محتملا للأذى ومعينا للاخوان ، وتلك
ثمرة من ثمار هذا الطريق وتوجيهات أئمة التصوف ، ولن يكون
الصوفي صوفيا الا اذا كان ذا قلب واسع يملؤه الصفيح وتنيره
الرحمة ، والصوفي في ذلك ينظر الى نبيه الكريم الذي وصفه الله
عز وجل بهذه الصفات العالية « عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم
بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٢) « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٣)
ويحدث هو عن نفسه قائلا : « انما انا رحمة مهداة » .

جاء في شذرات الذهب : « مما وقع له أن رجلا من دمشق
فرض على نفسه أن يلعبه كل يوم عشر مرات ، فمات ، وحضر
ابن عربي جنازته ثم رجع وجلس في بيته وتوجه للقبلة . فلما جاء
وقت الغداء احضر اليه فلم يأكل ، ولم يزل على حاله الى بعد
العشاء ، فالتفت مسرورا ، وطلب العشاء وأكل ، فقيل له في ذلك .
فقال : التزمت مع الله انى لا أكل ولا اشرب حتى يغفر لهذا الذي

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٢) التوبة ١٢٨ .

(٣) الانبياء ١٠٧ .

يلعننى ، وذكرت له سبعين ألف لا اله الا الله فغفر له « (١) ثم يقول ابن العماد : « وقد أودى الشيخ كثيرا في حياته. وبعد مماته مما لم يقع نظيره لغيره ، وقد أخير هو عن نفسه بذلك ، وذلك من غرر كراماته » وقد سبق الإشارة الى ذلك الاخبار وتعقيبه عليه بقوله : « فعلمت أنه لا بد أن يبتلىنى الله بكلام في عرضى من قوم فأعاملهم بالجلم » (١) .

هذا وشخصية الشيخ الأكبر صفحة مشرقة بكل ما يملأ النفوس اجلالا واعظاما ، وفي كل ناحية من نواحي العظمة الخلفية تجد له قسما راسخة واثرا مشهودا ، مما يطول بيانه ويعجز الوفاء به ، وقد صدق ابن العماد في قوله : « من تأمل سيرة ابن عربى وأخلاقه الحسنة وانسلاخه عن حظوظ نفسه وترك البصبيية حمله ذلك على محبته واعتقاده » (٢) .

ومن أقوال ابن عربى الماثورة التى تدل على سعة قلبه وجميل عفوهِ : « شرط الكامل الإحسان الى أعدائه وهم لا يشعرون تخلقا بأخلاق الله ، فانه دائم الإحسان الى من سماهم أعداءه مع جهل الأعداء به » (٣) .

و « ابن عربى » رغم الكرامات التى كانت تحدث على يديه ، فانه لم يكن يعبا بذلك أو يعلق عليه أهمية تذكر ، وهذا يضيف الى أخلاقه صفة أخرى ، هى صفة التسامى الى أعلى مدى يمكن أن تصل اليه روح ، وكثيرا ما كان ينصح أتباعه ومريديه بالآلا يتطلعوا الى شئ من هذه الخوارق أو الكرامات ، لأنها كثيرا ماتقف عقبة فى طريق وصول المريد الى الكمال ، فان حدث شئ من ذلك عفوا

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٢ .

(٢) ، (٣) المرجع السابق ص ١٩٧ .

فعليه أيضا الا يلتفت اليه بل عليه ان يستغفر منه لأنه امتحان في
قالب اكرام .

والكرامة الحقيقية في نظر « ابن عربى » وأمثاله هي الاستقامة
على الجادة ، والمضى قدما الى الأمام دون الالتفات الى أى عارض
يعترض الطريق ، ومن نصائحه في ذلك : « لا تطلب من الله في
خلوتك سواء ، ولا تعلق الهمة بغيره ، ولو عرض عليك كل ما في
الكون فخذ به بأدب ولا تقف عنده ، وصمم على طلبك فإنه يبتليك ،
ومهما وقفت مع شيء فاتك ، وإذا حصلت له لم يفتك شيء » وقد
عبر عن هذا المعنى صوفى آخر من تلاميذ الشاذلى هو ابن عطاء الله
السكندرى في حكمة من حكمه الرائعة بقوله : « ما أرادت همة
سالك أن تقف عندما كشف لها الا ونادته هواتف الحقيقة : الذى
تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات الا ونادته حقائقها : انما
نحن فتنة فلا تكفر » (١) .

(١) شرح الرندى على حكم ابن عطاء الله السكندرى .

ابن عربى الأديب

بيئة الأندلس والأدب : سبق الإشارة الى طبيعة الأندلس الجميلة المحببة الى النفوس فقد أحاطت بها المياه من أعظم جوانبها ، وتمتعت بتربة خصبة صالحة لما نما فيها من أشجار باسقة وأزهار متفتحة وثمار يانعة ، وتعددت فيها الأنهار التى من أهمها النهر الكبير ونهر تاجة ، وذلك الى جانب ما يوجد فيها من جبال متدرجة تثمر على سفوحها مختلف الزروع وشتى الثمار ، وقد تغنى كثير من الشعراء والأدباء بمفاتن الأندلس ووصفوا جمالها الأخاذ الساحر ، وتقننوا فى عرض هذه الصور فى منظومات رقيقة وتعبيرات أنيقة .

وقد كانت هذه البيئة مهدا صالحا لايخراج مئات الشعراء والأدباء الذين صقلت مواهبهم تلك المناظر الفاتنة وأبرزت استعداداتهم هذه المشاهدات البارة :

استعداد ابن عربى : وكان هذا كفيلا بتهيئة الفرصة لظهور موهبة كموهبة « ابن عربى » الذى هياته أرومته العربية الأصيلة الشاعرة فزودته بالاحساس المرفه والانفعال الصادق ، والتجاوب مع كل ما يقع تحت سمعه وبصره من فن مطبوع ومصنوع .

والتقى ابن عربى فى صباه بطائفة من العلماء الأجلاء «الفنانين»
الذين يحبون الأدب ويتذوقونه ويقولونه • فاستأذه فى القراءات
« أبو القاسم الششراط » كان بصيرا باللغة وأدائها وله حظ من
قرض الشعر • وأستاذة « أبو محمد عبد الحق الأشبيلى » كان
أديبا شاعرا ومن شعره :

ان فى الموت والمعاد لشغلا
لأولى الدين والنهى وبلاغنا
فاغتنم خطتين قبل المنايا
صحة الجسم يا أخى والفراغا

وغيرهما من أساتذته كان له ذلك الحظ من الأدب ، وشيوخه
فى التصوف كان أغلبهم أدباء فنانين لهم الباع الطويل فى فنون
التظم والنثر ، ومن بينهم « المارقلى وأبو مدين » وكلاهما له أدب
جيد رفيع •

كل ذلك كان له أثره فى صقل موهبته الأدبية وإنماء استعداده
الفنى مما جعله شاعرا مجيدا • يضاف إلى ذلك أقباله على قراءة
كثير من كتب الأدب ونقده والانتفاع بها انتفاعا كبيرا ، وهو يحدث
فى مقدمة كتابه « محاضرة الأبرار » عن كثير من الكتب التى قراها ،
ومن بينها فى فن الأدب الكتب الآتية : الأمانى لأبى المعالى البغدادى
نزيل قرطبة ، وكتاب ربحانة العاشق لأبى القاسم المسور ، وكتاب
روضة الأنس لأبى زيد السبهلى ، وكتاب الكامل للمبرد ، وزهرة
الأدب للحضرى ، والمحاسن والأضداد الجاحظ ، ومعاناة العقل
للحلوى ، والحماسة لأبى تمام ، والحماسة الحلوية وغيرها •

وهذا الاستعداد هو الذى كفل له أن يتولى كتابة الانشاء فى
ديوان « أشبيلية » ولا يتولى هذا المنصب الا من كانت لديه
الموهبة لذلك •

وقد كان ابن عربي منذ نشأته ميالا الى الأدب ، وكان يشارك في مجالسه وله دراية كاملة بفن القول يشهد لذلك كثرة ما اثر عنه من انتاج أدبي رائع في فن النظم والنثر .

اعجابه بالشعر الجيد ومشاركته في مجالس الأدب : ولقد كان يعجبه بيت من الشعر فينظم على منواله ، من ذلك مثلا ما يرويهِ الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل : أنشد بعض الصوفية ابن عربي بيتا مفردا فاعجب به ، فعمل أبياتا وضمنها هذا البيت وهو الرابع من القطعة الآتية :

قف بالطلول الدارسات بلعلع
واندب احببتا بذاك البلقع
قف بالديار وناجها متعجبا
منها بحسن تطف وتفجع
عهدي بمثلك عند بانك قاطعا
ثمر الخدود وورد روض ايتع
« كل الذي يرجو نوالك امطروا
ما كان برقك خلبا الا معي »
قالت : نعم قد كان ذاك الملتقى
في ظل افئاني بذاك الموضع (١)

« وابن عربي » يتمتع بملكة نقد صافية تعينه على تمييز الجيد من الكلام ، وكتابه محاضرة الأبرار خير نموذج لذلك نقتطف من زهراته ما يأتي :

يقول ابن عربي : مما جاء في الجود قول الشاعر :

(١) مجلة منبر الإسلام عدد ربيع الأول - ١٣٨٦ هـ .

فتى عاهد الرحمن فى بطل ماله
فلسيت تراه الدهر الا على العهد
فتى قصرت امله عن فعاله
وليس على الحر الكريم سوى الجهد

ويعلق على ذلك بقوله : هذا المديح اقرب للديانة من الكرم .
فان عطاءه انما هو من اجل الوفاء بعهده مع الله ، حتى لا يكون
من الذين ينقضون عهد الله ، والكريم سجيته الكرم ، فلا يحتاج الى
القسم عليه الا لعله نفسه ، فما وفى هذا الشاعر مدح هذا فى الكرم
ما تصور له فى خاطره . فهذا اللفظ دون ما فى القصد .

ومن جيد الشعر ما قال القائل :
لئن ساءنى ان تلتنى ياساءة
لقد سرنى انى خطرت ببالكا
ويعلق : واحسن منه لو قال ما قلنا :
لئن سرنى ان تلتنى بمساءة
فما كان الا ان خطرت ببالكا
لان الاول قد اقر بانه اساء ثم اعتذر .

ومن احسن الشعر ما قال الآخر فى باب الشكوى :
فالليل ان وصلت كالليل ان هجرت
اشكو من الطول ما اشكو من القصر
ويعلق : احسن منه ما قلنا :
شغلى بها وصلت بالليل او هجرت
فما ابالى اطلال الليل ام قصرا .

فان الأول شغله بطول الليل وقصره من أجلها • فهو فاقد لها
في زمن الاشتغال بغيرها والثانى شغله بها ومن سواها تبع (١) •
وهذا الكتاب غاص بمثل ذلك وغيره من ألوان القطوف •

ومن أمثلة مشاركته في مجالس الأدب ما يحكيه المرقى نقلا عن
العماد بن النحاس : « انه كان في سفح جبل قاسيون على مستشرف ،
وعنده الشيخ محيى الدين والغيث والسحاب عليهم ، ودمشق ليس
عليها شيء ، قال فقلت للشيخ : أما ترى هذه الحال ؟ فقال : كنت
بمراكش وعندى ابن خروف الشاعر يعنى أبا الحسن على بن محمد
القرطبي القيذاني ، وقد اتفق الحال مثل هذه ، فقلت له مثل هذه
المقالة ، فأنشدنى :

يطوف السحاب بمراكش

طواف الحجيج يبيت الحرم

يروم نزولا فلا يستطيع

أسفك الدماء وهتك الحرم (٢)

مأثوراته الأدبية :

ومأثورات « ابن عربى » الأدبية كثيرة ، في مقدمتها دواوين
شعره ، ويذكر منها « بروكلمان » الديوان الأكبر - وديوان
الأشواق وله اسم آخر هو « الهجاء الأمجد على ترتيب حروف
الأبجد) وديوان المرتجلات ، والقصيدة الثائية ، وقصيدة في
المناسك ، وترجمان الأشواق وشرحه عليه المسمى : بذخائر الأعلام
في شرح ترجمان الأشواق ، وغير ذلك من الكتب • ومن عيون

(١) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ٤٤ •

(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠٦ •

أثاره الأدبية كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، وهو كتاب نفيس جمع « ضروباً من الآداب وقنونا من المواعظ والأمثال والحكايات النادرة ، والأخبار السائرة ، وسير الأولين من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والأمم وأخبار ملوك العرب والعجم ومكارم الأخلاق ٠٠ » (١) وفيه يقول : محاضرة الأبرار خير كتاب ، لب الباب ونزهة الألباب .

نماذج من شعره : وشعر « ابن عربى » يدور أغلبه حول المعانى الصوفية ، وإن كان بعض ما فيه من قصائد تدور حول النواحي الاجتماعية كهذين البيتين اللذين وردا فى اجابة سؤال سألته بعض أصحابه له : كيف حالك مع أهلك ؟ فأجاب :

إذا رأى أهل بيتى الكيس ممثلاً

تبسمت ودنت منى تمازحنى

وإن رآته خليفاً من دراهمه

تكرهت واثنت على ثقابى

وهى قضية اجتماعية نراها سائدة فى مختلف المجتمعات فقد أجابه السائل : كلنا ذلك الرجل .

وبالرغم من زهد « ابن عربى » إلا أنه رأى حب المال سائداً كما رأى أثره فى مختلف مناحى الحياة بل هو عصبها ، ولكن يجب ألا يكون شاعلاً عن الله فهو ينصح بأن يكون الإنسان غنياً بالله لا بالمال : -

بالمال يتقاد كل صعب من عالم الأرض والسماء

يحسبه عالم حجاباً لم يعرفوا لذة العطاء

(١) محاضرة الأبرار (المقدمة) .

لولا الذئ في النفوس منه لم يجب الله في الدعاء
لا تحسب المال ما تراه من عسجد مشرق الضياء
بل هببوا ما كنت يا بني به غنيا عن السواء
فكن برب العباد غنيا وعامل الخلق بالوفاء

ومن القضايا الاجتماعية البارزة في كل عصر هي أن يتولى
بعض الأمور من ليس أهلا لها ، وأن يرتفع الحقيير ويتضع العظيم ،
وهذه سنة الكون : -

قد تاب علمائنا علينا فما لنا في الوجود قدر
اذنايتنا صيرت رعوسا ما لى على ماأراه صبر
هذا هو الدهر يا خليلي فمن يقاسيه فهو قهر
وله في الفخر قصائد مر علينا طرف منها •

وابن عربي كشاعر مطبوع نشأ في بيئة الأندلس المزهرة
لا ينسى الإعجاب بالطبيعة ، وما أنشد فيها من شعر كما يصوغ
هو في ذلك • فمما أعجب وضيمه كتابه محاضرة الأبرار ، قول
أبي على ابن شبل في وصف الربيع : -

عرائس الأرض تجلى في غلائلها
وفي جلى عليها صاغها الديم
تسكن في حلل الأنواء مذهبة
في كل حاشية من نسجها علم
بر من الاقصوان الغض زينه
حصر اليواقيت في المتثور ينتظم
كانما بالسسماء الأرض شامخة
تيكى السسماء وثغر الأرض يتقسم

وأما قول ابن عربي فهو :

أما ترى الروضة الغناء تضحك اذ
جادت على الأرض بالأزهار انواء
تبسم الأرض اذ تبكى السماء فهل
بين السماء وبين الأرض شحناء
لا والذي يضروب الزهر اضحكها
ما ثم شحناء لكن ثم اشياء
ان السماء تقول الزهر من زهرى
والأرض تأبى الذى قالته والماء
وابن عربي زاد على ابن شبل جمال التعليل •

المعاني الصوفية في شعره :

ولكنه في شعره شغل بالتصوف كما شغل به في غيره من
الكتب ، ولذلك حفل انتاجه بهذه المعاني التى دارت حول الشوق
والحبة والأنس والقناء والبقاء وفنون المعرفة التى كشف له عنها
أو تذوقها ، وغير ذلك من المصطلحات التى حفلت بها كتب
التصوف •

وقد نحا فى شعره منحى الرمز كغيره من الصوفية لأنه ضمن
بأسراره أن تنتهك ، وتلك عادة الصوفية في التعبير عن ادواقهم •
ومن هذا اللون الرمزي قوله في محاضرة الأبرار : -

وسقى الورد نرجس الخفر	طلع البدر في دجا الشعر
وزها نورها على القمر	غادة تاهت الحسان بها
صورة لا تقاس بالصور	هى أسنى من المهابة سنا
تاجها خارج عن الأكر	فلك النور دون أخصها

أن سرت في الضمير يجرحها ذلك الوهم كيف بالبصر ؟
 لعبنة ذكرنا يذوبها لطف من مسارح النظر -
 ومن ذلك قوله في ترجمان الأشواق :

غادروني بالأنيل والنقا	أسكب الدمع واشكو الحرقا
بابي من ثبت فيه كمدا	بابي من مت منه قرقا
حمرة الخجلة في وجنته	وضح الصبح يناغي الشفقا
قوض الصبر فطلب الأسى	واتا ما بين هذين لقي
من لبثي من لوجدي دلي	من لحزني من لصب عشقا ؟
كلما ضمنت تباريح الهوى	فضح الدمع الهوى والأرقا
فاذا قلت : هبوا لي نظرة	قيل : ما تمنع الا شفقا
ما عسى تغنيك منهم نظرة	بلى الا لمح برق برق
لست أنسى اذ حدا الحادي بهم	يطلب البين ويبغى الأبرقا
نعقت أغربة البين بهم	لا رعى الله غرابا نعقا
ما غراب البين الا جمل	سار بالأحباب نصا عنقا

ولا ينكر منكر رقة هذه الأبيات وعذوبتها ولطف معانيها ، ولو أنها انصرفت الى القول الحسى لصورت كل ما يمكن تصويره من ألم البعد والفراق الى جانب التحسر على جمال المحبوب الذي اضطبغت وجنته بحمرة الخجل ، ويود لو يفديه بروحه وبأبيه ، الى غير ذلك من معاني الحب وأفاعيله في الأرواح والقلوب ، ولقد عرض ذلك في صور تغذيها العاطفة ويقويها الخيال ، فهو قد ذاب من ألم الفراق ، وهو قد صور الصبر خيمة قوضت ، وصور الأسى مقيما ، وجعل الدمع فاضحا هواه ، ونظرة المحبوب

ما هي الا برق يبرق ، وحمرة النخل في الوجنة البيضاء ما هي
الا اجتماع الشفق ببياض الصبح .

ولكنها منصرفة الى المعانى الروحية التى يوضحها الأستاذ
عبد العزيز سيد الأهل بقوله :

« وابن عربى يشير الى الروحانيات بالمغادرين والمسافرين،
وحزنه وكمده ودمعه وخوفه كل ذلك من مفارقة الروحانيات
اللطيفة لجسده الثقيل ، وتركها له مرتها بهيكلة مقيدا فيه ،
وهو يستغيث بالروح الكلى ليظل قلبه متصلا بالتنزلات الالهية
التى تبعته وتحببه والاشارة بمعالم الجمال الى التجلى على القلب
ووقوع الاستحياء فيه من هيبة التجلى ، وليس الصبر والأسى
الا لفحات من الشوق تصيب القلب فلا يحتملها الا بما يعين ،
وهو كلما حاول القيام فى مقام الكتمان الجاه الشوق الى البوح
والاعلان ، واذا لم ينطق به لسانه نطقت جفونه ، واذا تمنى نظرة
منع منها . وهو يحسب انه منع قهرا ، ولكنه اشفاق به ، واذا
أرخت الحجب بين السباحات وبين الخلق فرحة بهم واشفاقا
عليهم ، ولو رفعت هذه الحجب ، وكشفت هذه الستور لاحتقت
سباحات وجهه » .

« والنظرة الواحدة لو تمكن الانسان منها مطغية تثير النفس
الى نظرة أخرى بعدها ، ومثلها فى فعلها بالقلب مثل فعل ماء
البحر بالظمان كلمة شرب ازداد عطشا . ولم يتسن الصنوفى
الروحانيات التى جالسته فى الله تعالى ثم عرجت اليه شاهدة
بقعله وجهه ودأبه فى العبادة والطاعة ، وكان عروجها الى الأبرق
اشارة الى المشهود الذاتى ، وأما الاشارة بالبرق فللنور الذى
ينسكب خاطفا ثم يسرع زائلا عن الحضرة والمكان .

« والتكنية بالأغربة عن الأمور التي خلفته عن العروج مع هذه الروحانيات وتركته مقيما في حبس الجسد لا يسمو الى مقام العبودية التي هي غاية السمو والارتقاء ، وليست مراكب هذا السمو الا الهمم التي أعدت للوصول ، فمن بذلها وركب نجائبها سارت به الى المكانة التي تنعدم فيها الأسماء وتضمحل الرسوم وتفيض النعم والتجليات من الحى القيوم » (١) .

ولقد دعا ابن عربى السامعين والقارئین الا يقفوا عند حدود ظاهر الألفاظ بل عليهم أن يتعمقوا فى فهم مضمونها وأسرارها حتى يدركوا ما فيها من جمال وأذواق وهو يقول فى ذلك : -

كل ما أنكره مما جرى ذكره أو مثله أن تفهمه
منه أسرار وأنوار جلت أو علت جاء بها رب السما
فأصرف خاطر عن ظاهرها وأطلب الباطن حتى تعلمه .

ولقد صاغ ابن عربى فى مختلف معانى الحب ، فمن ذلك قوله فى النحول : -

سيرتى حبك معقولا بحكمه وكنت محسوسا
لطفت حتى لا يرانى الهوى قلم يجد عندى تعريسا (٢)

ومن قوله فى اتحاد المحب فى الهوى وهو من المعانى الدقيقة : -

ان الهوى ما أنا للمحب حاملة

والحكم للمحب فى الأشخاص ليس لنا

مثل الصفات لدى قوم أشاعرة

فلا الهوى هو غيرى لا ولا هو أنا

(١) منبر الاسلام مند جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ .

(٢) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ١٥٠ .

ان الهوى وأنا بالعين متحص
 فان أمت فيه وجدا أو أعش فبنا
 لولا الجمال الذى بالحب كلفنا
 لم يهلك الوجد قلب الصب والبدنا
 ان « النظام » لحدى ما أفوه به
 وقد أشرت اليها مرة : بمعنى «(١)
 وله في معنى معاتبة القلب والبصر .
 تقول عيني لقلبي : ان فكرك قد
 رعى الجفون يدمع الوجد والسمهر
 فقال قلبي لطرفي : لا تقول كذا
 بل انت عرضتني للفكر بالنظر
 لولا الجمال الذى القت نواظركم
 هوأه في خلدي لم تبيل بالفكر
 فالتعب للقلب جود من معاتبة
 وانما التعب في التحقيق للبصر
 وها انا حكم بالعدل بينهما
 لعلمنا بالذى فيه من الخير(١)
 ولابن عربى قريحة شعرية تعينه على الارتجال ، فقد حدثوا أنه
 قال مرة هذا البيت : -
 يا من يرانى ولا أراه
 كم ذا أراه ولا يرانى

(١) محاضرات الأبرار ج ٢ ص ١٥٠ .

فأنكر عليه أحد تلامذته ذلك وقال له : كيف تقول : انك تراه
ولا يراك ؟ فأنشد على الفور مرتجلا :

يا من يرانى مجرما ولا أراه أخذا
كم ذا أراه منعمًا ولا يرانى لأثما
شعره فى التصوف العملى : -

وقد نظم « ابن عربى » فى جميع فنون التصوف ، ومن
بين ذلك ما نظمته فى الدعوة الى الأخلاق والزهد وإيثار الآخرة على
الأولى والتشوق الى النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن أمثلة ذلك
قوله يرغب فى فعل الخير : -

لا تقدم على خير تجود به
وان أغاظك من تعطييه واقترفا
فالله يرزق من يعطييه نعمته
سواء أنكرها كفرًا أو اعترفا
ويدعو الى الاخلاص فى العمل والبعد عن الرياء قائلا : -

ان كنت لى اكـون لك ما انت لى ما انا لك
فاصبغ الى قولى تجدد صيحة ما قد قلت لك
ولتلتزم طريقتى واجهد وخلص عمك
تتل بما جئت به من كل خير املك

وكتب الى صاحب له ببلاد الروم اسمه « اسحاق بن محمد
من اصحاب السلطان ممن تخدمه الدولة وتظهر به السنة : -

اسحاق فاسمع لوعظ من اخى ثقة
ولا يغرنك تقريب السلاطين

ان الملوك قد استغنوا بملكهم
 عنا وعمّا بأيديهم من الدين
 فاستغن بالله عن ملك الملوك وعن
 سؤال من هو مسكين ابن مسكين
 قاله يكفيك يا عيتى ويا وادى
 شر الملوك وأشرار الشياطين
 ومن شعره الذى يدل على التأمل والنظرة الصائبة قوله عن
 الموت : -

شباب فوداى وشبب الأمل
 ومضى العمر وجاء الأجل
 عسكر الموت لنا منتظر
 فاذا سـرنا اليهم رحلوا
 ليت شعرى ليت شعرى هل دروا
 اننى بـعدهم منتـقل ؟
 فى فتـون اللهـو أفنى طريا
 غافلا عما له انتـقل

وله فى معنى الحاسبة وازدافه الأعمال الى الله تعالى ،
 ان لا فاعل الا هو ورد فى محاضرة الأبرار :

وتحاسبهم بما فعلوا	وما فعلوا الذى فعلوا
وتطلبهم بما عملوا	وانت خلقت ما عملوا
فهل تتجيبهم حجج ؟	وهل يزكوا لهم عمل ؟
لئن اخذنا بما عملوا	فاعظم منه ما جهلوا ..

وهو ينظر الى قوله تعالى « وما تشاءون الا أن يشاء الله وقوله : « والله خلقكم وما تعملون » وهو يمتدح المصطفى ولكنه لا يجرى على قاعدة المدح التقليدى ، بل يتجه اتجاهها صوفيا ينظر فيه الى اثر الرسول في نفسه ، والى رحمته التى شملته لأنه من المؤمنين وقد جعل الله الرسول بالْمُؤْمِنِينَ رِعْوَفًا رَحِيمًا ويقول في ذلك : -

مدحت المصطفى فمدحت نفسى
ولى قسم وما جاوزت قسمى
فأعصمالى تُرد على مننه
ولو أرمى فعينى مننه أرمى
وقد عصم الإله به وجودى
فإن أرمى بسهم ليس يصمى
وهذى رحمة مننه توالى
لدى بها يعود على سهمى
وظننى لم يزل ظننا جميلا
فإن الظن مننه عين علمى

وهو ينظر الى النبى المصطفى نظرة عظيمة تزكيتها وراثته له ، ودليله فى هذه الوراثة اتباعه شريعته التى جاء بها ، ويقارن بينه وبين نبى الله موسى عليهما السلام ، ويبين أفضلية محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن محمدا أسرى وعرج به أما موسى فقد كلم فقط .

ورثت الهاشمى أخا قریش
بأوضح ما يكون من الدليل

أبايعه على الإسلام كشفا
 وإيماننا بالحق بالرعيـل
 أقوم به وعنه اليه حتى
 أبينه لأبناء السبيل
 سرى في النور حتى كان النـي
 من القوسين في ظل ظليل
 وشرف بالكلام أخوه موسى
 على كتب وذلك بالمسـيل
 وأين العرش من واد بقاع
 كما أين الكليم من الخـيل ؟
 ويتشوق ابن عربي الى الكعبة والى الروضة الشريفة .
 فيصوغ في ذلك دررا غوالي تجمع بين الشوق والتكريم لصاحب
 الرسالة صلى الله عليه وسلم فيقول :
 يا حبيذا المسجد من مسجد
 وحبيذا الروضة من مشهد
 وحبيذا طيبة من بلدة
 فيها ضريح المصطفى احمد
 صلى عليه الله من سيد
 لولاه لم نفلح ولم نهتـد
 قد قرن الله به ذكره
 في كل يوم فاعتبر ترشـد
 عشر خفيات وعشر اذا
 أعلن بالتأذين في المسـجد

فهذه عشرون مقرونة
بأفضل الذكر الى الموعد

وتشوق ابن عربى الى الكعبة تغذية الأسرار الروحية
التعبدية ، فتلهب ذلك الشوق وتحببه ، فلا ينطفىء حتى بمشاهدة
الكعبة وطوافه حولها ، وهو يقول فى ذلك :

انى الى الكعبة الغراء مشتاق
فيها لعاشقها فى السر اعلاق

اذا تذكرت أسرارى ومشهدا
فيها تحركنى للبين أشواق

الله يعلم انى لست اذكرها
الا وعندى لذاك الذكر احراق

فألروح تائهة والنفس والهة
والقلب محترق والدمع مهراق •

ويدعو ابن عربى الى اكتساب الحلال فى الرزق على طريقته فى
تفسير المعانى تفسيراً صوفياً دقيقاً ، يشير الى وجوب ادراك
الأسرار الالهية فى كل شئ فيقول :

فى شهوة البطن سر ليس يعلمه
الا الذى شاهد الرزاق رزاقا

لولا الغذاء ولولا سر حكمته
ما لاح فرع ولا عاينت اعراقا

فكل حاللا اذا كان المحال مو
جودا بقلبك وهابا وخلاقا

وابن عربى يعلل دوران الزمان واختلاف الفصول تعليلا صوفيا ، يدركه العاقل الذى أدرك سر الحركة فى الوجود كله ، وهو على رأى الأستاذ سيد الأهل سباق فى نظرتة تلك التى لم يحققها العلم الا حديثا ، وهو يقول فى ذلك :

أناك الشفاء عقيب الخريف

وجاء الربيع يليه المصيف

ودار الزمان بأبناؤه

فمن دوره كان دور الرغيف

سرى فى الجسم بأحكامه

تغذى اللطيف به والكثيف

عجبت لهم جهلوا ربهم

ويسعى القوى له والضعيف

فأصبح كالماء فى قدره

لديهم وفى الماء سر لطيف

وابن عربى فى أدبه عميق الفكرة دقيق المعنى ، لا ينظر الى ظواهر الأشياء ولكنه يتعمق الى خفاياها ، فيستنبط منها أسرارها عجيبة وأحكاما غريبة ، وكم من أكل وشارب ، وكم من مشاهد لتقلب الأيام واختلاف الفصول ، ولكن قليلا من هؤلاء هم الذين فطنوا الى الحكمة من هذا وذاك .

ابن عربى والموشحات :

وابن عربى كشاعر شارك فى النهضة الأدبية التى كانت شائعة فى الأندلس ، وسلك بنظمه مختلف الاتجاهات الشكلية التى استعملها الشعراء حينذاك ، ومن بين ذلك الموشحات التى ازداد خطرهما

في الأندلس وأصبحت لها مكانتها ، وافتن الشعراء فيها إفتنانا كبيرا ، وأصبحت مجال سبق بينهم ، ومن نماذج موشحاته التي استشهد بها المقرئ قوله :

مطلع : سرائر الأعيان لاحت على الأكوان للناظرين
والعاشق الغيران من ذلك في حران ييـدى الأئين
دور : يقول والوجد أضناه والبعد قد حـيره
لما دنا البعد لم أد من بعد من غـيره
وهيم العبد والواحد الفرد قد خـيره
في البوح والكتمان والسر والاعلان في العـالمين
أما هو الديان يا عابد الأوثان انت الضئـين
دور : كل الهوى صعب على الذى يشكو ذل الحجاب
يا من لسه قلب لو أنه يذكـو عند الشـباب
قد قرب الرب لكنه أفك فانو المآب
وناد يا رحمن يا رب يا مـثان انى حـزين

ولا يخفى معرفة ما تدور حولها هذه الموشحة من معان صوفية روحية ، وفي الحقيقة لا يمكن الحكم على أدب « ابن عربى » بعيدا عن تصوفه ، لأن الأدب انما هو ترجمان الفكر ، وإذا حكمنا غزارة الانتاج الى عمق أفكار « ابن عربى » وجدناه في الأدب فارسا لا يشق له غبار . هذا الى جانب تمكنه القوى في أن يعبر عن الحقائق العلمية بأسلوب أدبى منظوم أو منثور وكتبه العديدة غاصة بذلك اللون . والمقام يضيق عن عرض نماذج من ذلك . ولعمري أن عرض الحقائق العلمية والصوفية بأسلوب مطواع دليل واضح على تمكنه من ناصية الأدب . فالمعروف أن الشعر يعتمد على الخيال والتصوير ومجاله فى العاطفة أجلى وأوضح . فإذا ما استطاع الشاعر أن

يعرض بشعره بعض الحقائق دون تعمل وتعقيد كان ذلك دليلا على براعته الفائقة وشاعريته الملهمة ، ولقد عبر ابن عربي نفسه عن ذلك في الفصل الأول من الفتوحات عند تعليقه على قوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » بقوله : فان الشعر محل الاجمال والرموز والألغاز والتورية ومعنى ذلك أن مجال الشعر أضيق من مجال النثر في التعبير لاعتماده غالبا على التلويح دون التصريح . والاعتماد على التلويح والاشارة أدق وأبرع ولذلك كان الشعر موهبة من المواهب التي يختص بها قوم دون قوم . فما باللك اذا كان الشاعر غلبت عليه المعارف الالهامية التي تعز على العقول وتجل عن التعبير فعرضها بالنثر عسير واذن فعرضها بالشعر أشد عسرا أو أكثر تأبيا الا من كانت له ملكة قوية ومقدرة فائقة .

نثر ابن عربي :

وللشيخ الأكبر نثر في القمة الأدبية ، وكتابه « الفتوحات المكية » خير نموذج لذلك ، وهو يعد دائرة معارف للعلوم الصوفية الى جانب ما يتميز به من سرد الحوادث في أسلوب سهل متناسق ، ولا يفغل جانب التشويق في بعض ما يعرضه من قصص ، ويحتوى الكتاب أيضا على نماذج مختلفة منها الوصايا والرسائل والحكم والمواعظ والمعارف الصوفية المختلفة ، وقد سبق عرض بعض نماذج من أسلوبه القصصى في هذا الكتاب ، ومن نماذج أدبه الوصفى ما سيأتى بعد في بيان صفة العارف . عند الحديث عن كتاب الفتوحات .

وفي نثره قد يلجأ الى استعمال السجع والزخرف اللفظى كما نرى في هذه القطعة التي يكتب بها مقدمة « مواقع النجوم » : « لما شاء الله الحق - سبحانه وتعالى - أن يبرز هذا الكتاب الكريم الى الوجود ، ويتحف خلقه بما اختاره لهم من لطائف وبركاته في خزائن جوده ، على يدى من يشاء من عبده ، حرك خاطرى انضاء المطية -

من مرسية الى المرية • فامتطيت الرجال ، واخذت في الترحال ،
مرافقا اظهر عصبية واكرم فتية •• فلما وصلتها لأقضى أمورا
املتها ، تلقاني شهر رمضان بهلاله ، وصافحني على مسامرته بها
الى أو ان انفصاله ، فألقيت بها عصا التسيار ، واخذت في الذكر
والاستغفار » (١) ••

ونرى استعمال هذا الأسلوب الزخرفي في بعض الكتب الأخرى
- وهو أسلوب هذا العصر - مثل شجرة الكون ، ومحاضرة الأبرار ،
وشرح ترجمان الأشواق •

ومن نماذج نثره الذي يجمع بين الرسالة والوصية كتابه الى
الملك كيكاوس صاحب بلاد الشمال ، ردا على رسالته التي أرسلها
الى الشيخ الأكبر يستشيريه في بعض الأمور : « بسم الله الرحمن
الرحيم ، وصل الاهتمام السلطاني الغالب بأمر الله العزيز أدام الله
عدل سلطانه الى والده الداعي له محمد بن العربي ، فتعين عليه
الجواب بالوصية الدينية ، والنصيحة السياسية الالهية ، على قدر
ما يعطيه الوقت ، ويحتمله الكتاب الى أن يقدر الاجتماع ويرفع
الحجاب ، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة
المسلمين وعامتهم وأنت يا هذا بلا شك من أئمة المسلمين ، وقد قللك
الله هذا الأمر ، وأقامك نائبا في بلاده ومتحكما بما توفق اليه في
عباده ، ووضع لك ميزانا مستقيما تقيمه فيهم ، وأوضح لك حجة
بيضاء تمشي عليها وتدعوهم اليها ، على هذا الشرط ولاك ، وعلمه
بإيعانك فإن عدلت فلك ولهم ، وإن جرت فلهم وعليك ، فاحذر أن
أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا ، الذين ضل
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » •

(١) مقدمة مواقع النجوم •

والتأمل في أسلوب الرسالة يجدها غير متكلفة ، ويظهر فيها أثر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، كما تغلب عليها المعانى الدينية والصوفية التى هى موضوعات كتبه كلها .

كما اننا نحكم منها على علو منزلته في نفوس الحكام ورغبتهم في استشارته والأخذ بنصيحته ونذكر منها حرصه على استئداء النصيح لمصلحة المسلمين ما أمكنته الفرصة لذلك محملا الحكام مسئولية تقصيرهم نحو رعيته . وهذا منتهى الشجاعة الأدبية .

منزلة ابن عربى الأدبية :

لسنا في حاجة الى ادراك منزلة « ابن عربى » الأدبية التى وضعته في القمة بين أدباء المشرق والمغرب ، بل أصبح أحد الذين تمكنوا بمنزلتهم من التأثير في الجو الأدبي الشرقى وقد جعله صاحب كتاب « الشعر الأندلسى » بصفة خاصة عاملا هاما في ذلك التأثير ويقول في ذلك : أصبح أعلام الأندلس يخرجون « بزاد حافل من المعارف ينشرونها في أقطار نائية ، رجال مثل الحسين بن جبير ، ومحمد بن أحمد الصابونى وابن خروف سينقلون دور الشعر الأندلسى الى آفاق بعيدة . أما الششتري المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ومحى الدين بن عربى بصفة خاصة (٥٦١ - ٦٣٨ هـ) فسينقلان الى مدائن المشرق ما كان يفيض به قلباهما من حرارة الشوق الالهى ، وحيرة الصوفية وأحلامها الشاطحة ، وسيقضيان أيامهما في مكاشفة الدراويش ومقاسمتهم العيش » (١) .

ويقول الدكتور « محمد مصطفى حلمى » عنه : لقد خلف « ابن عربى » تراثا رائعا في الحب الالهى أشرقت بالأنوار الالهية صفحاته وعبرت بالأسرار القدسية نفحاته (٢) .

(١) الشعر الأندلسى لأميلوفرسيه غومس - ترجمة حسين مؤنس - ص ٣٤ .

(٢) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٣ .

أما الدكتور زكى مبارك فيقرر عنه أنه « فتح الباب أمام الدارسين من الصوفية والفقهاء فكانت كتبه مبعث نهضة أدبية قليلة الأمثال ٠٠ ان ابن عربى لا تعرف أهميته في عالم الأدب والأخلاق الا ان فكرنا جيدا فيما ترك من الثروة الأدبية والأخلاقية، يجب أن نتذكر أنه ترك ألوف الصفحات ومئات القصائد وأنه راضى اللغة على الطوعية للرموز وإشارات » (١) . وتلك براعة من غير شك .

هذا رأى أدباء العصر الحديث ونقادهم ، أما آراء من سبقوهم في أدب « ابن عربى » فتظهر في تقريرهم له ، ومن ذلك قول ابن الأبار عنه : « انه أخذ عن مشيخة بلده ومال الى الآداب » وقول ابن النجار « له اشعار حسنة وكلام مليح ، اجتمعت به في دمشق في رحلتى اليها وكتبت له شيئا من شعره » وقول ابن مسدى : « انه كان جميل الجملة والتفصيل ، وله في الأدب الشاؤ الذى لا يلحق والتقدم الذى لا يسبق » وجاء في عنوان الدراية « هو فصيح اللسان بارع فهم الجنان ، قوى على الايراد كلما طلب الزيادة يزاد » وقال المقرئ : « ونظم الشيخ محيى الدين هو البحر الذى لا ساحل له » .

كل ذلك يلقى الضوء على هذه الشخصية الأدبية الرائعة التى كان صاحبها يعتز بالكتاب والعلم والأدب ايما اعتزاز .

(١) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ج ١ ص ٢٠٣ .

ابن عربي الصوفي

التصوف ليس علما مكتسبا :

لقب ابن عربي بالشيخ الأكبر كما لقب بسلطان العارفين ، وهذان اللقبان لم يطلقا عليه اعتباطا ، ولكنهما أطلقا عليه عن جدارة فائقة بناء على ما وصل اليه من مكانة رفيعة في التصوف وعلومه وأذواقه •

والتصوف في حقيقة الأمر ليس علما مكتسبا يستطيع الانسان ان يحصله بالقراءة ، ولو أفنى في ذلك زهرة شبابه ونضارة حياته ولكن التصوف ذوق يكتسب بالعمل والسلوك والتهديب النفسى والخلقى • وحين ذلك تثمر هذه المجاهدة أحوالا وأذواقا • قد يعبر عنها الصوفي أو لا يعبر •

ولن يهتدى العقل اطلاقا وحده الى المعرفة الصوفية وحقيقتها بدون سلوك ومجاهدة ، وهذا لا بد لهما من ارشاد شيخ عارف بصير خبير بمسالك الطريق ودروبه وشعابه •

والتربية في الطريق الصوفى أمر له أهميته ، ويعول عليها الصوفية تعويلا كبيرا ، ولا يكاد يوجد فذ من أفذاذ الطريق دون أن

يكون له موجه ومرشد يدلّه على طرق الجهاد ووسائله حتى ينتصر
ويدرك ويبصر .

ولقد بلغ « الغزالي » أعلى المنازل العلمية ، وتبوأ عرش المعارف
الفكرية ، وقرأ كثيرا من كتب التصوف ، ولكنه لم يصبح صوفيا
الا منذ أن أخذ بيده شيخه « يوسف النساج » الى طريق الخير ،
وفتح عيونه على مغاليق المعرفة ، فأدرك ما لم يكن يدور في خلد ،
وما لم يكن له في حسابان .

والمعرفة الصوفية أسرار أكنها الله واختص بها أصفياه وجعل
الطريق اليها محفوفًا بالمخاطر والمعوقات ، ولن يتمكن من سلوكه
الا من وطّد عزمه على اجتيازه ، وجاهد جهادا شاقا ، حتى اذا
ما انتصر في جهاده ارتفع الحجاب الكثيف الذي غطى على بصره
وبصيرته ، فأدرك من الحقائق في نفسه وفيما يحيط به ما لا عين رأت
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والقرآن الكريم يزكى ذلك بقوله : « واتقوا الله ويعلمكم الله »
والحديث الشريف يقول : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم .
وليس غريبا أن يكون للسلوك القويم أثر في تهذيب الوجدان وفي
تصفية النفس وتنقيتها وأجلاء مرآتها فتدرك من المعاني أعماقها وتلهم
من الأسرار أدقها . رقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله :
« اذا رايتم الرجل قد أوتى زهدا في الدنيا ومنطقا فاقتربوا منه
فانما يلقي الحكمة » . وقيل : « اذا زهد العبد في الدنيا وكل الله
تعالى به ملكا يغرس الحكمة في قلبه » (١) .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود في هذا المعنى « التصوف
ليس ثمرة لثقافة كسبية ، ان الوسيلة اليه ليست هي الثقافة ،
ولكن الوسيلة اليه انما هي العمل ، ان الطريق اليه انما هو السلوك
والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هي الهام وهي كشف وهي

(١) الرسالة القشيرية .

ملاً على انعكس على البصيرة المجلوة ، فتذوقه الشخص حالا
وأحس به ذوقاً وإدركه الهاما وكشفاً (١) .

والدكتور عبد الحليم محمود يقرر هذا الكلام حين يتحدث عن
عدم تأثر سيدي أبي الحسن الشاذلي بمصادر أثرت في سلوكه
أو اتجاهه أو ذوقه، بناءً على أن التصوف لا يدرك بالتلقين أو البحث
أو الدراسة ولكن حقائقه تورث بالعمل والسلوك والمجاهدة ، وإن
كان ذلك يحتاج إلى مرشد وموجه يأخذ بطريق المريد حتى يمسك
بزمam نفسه ، ثم يقول له : ها أنت وريك ، وهذا كما فعل « ابن
مشتيس » مع « الشاذلي » رضى الله عنهما .

كيف تكونت شخصية « ابن عربي » الصوفية ؟

وهذا الكلام مفيد نصل منه إلى ما نريد ، وهو الإجابة على هذا
السؤال : كيف تكونت شخصية ابن عربي الصوفية ؟ .

تكونت شخصية ابن عربي بواسطة جهاد شاق مرير متواصل
تعددت ألوانه وطرقه ولم تخرج على النمط الصوفي المعروف ،
وهو القيام برياضات مختلفة تتنوع بين العزلة والسياسة والجوع
والصمت والذكر والتفكير ومجاسة الصالحين واختيار الرفقاء
وحمل النفس على ما تكره من أنواع المشقة في ضوء الالتزام بالشرع
الحنيف .

وتم ذلك بتوجيه وإرشاد ظهر من سلسلة الشيوخ الذين
التقى بهم ابن عربي وانتفع بنصيحهم . وقد سبق الإشارة إليهم .

ولم يغفل في طريق ذلك الاستفادة من الكتب الصوفية التي وضعها
بالهام من الله كبار الصوفية ، وفي مقدمة ذلك . الرسالة
القشيرية . التي لا تزال مرجعاً هاماً في التصوف ومؤلفها الإمام

(١) ابن الحسن الشاذلي ص ٢٠٨ .

العالم أبو القاسم بن هوزان القشيري المتوفى سنة خمس وستين وأربعمائة . وقد صرح « ابن عربي » أنه قد أفاد منها في بدء سلوكه الطريق (١) .

وكتاب « ختم الأولياء للحكيم الترمذى » وقد كان هذا الكتاب مثار اهتمام الصوفية ومحى الدين بن عربي بصفة اخص (٢) وألف حوله كتابا يجيب فيه عن الأسئلة التى طرحها هذا الحكيم فى كتابه .

وكتاب « احياء علوم الدين » للغزالي ، وأهميته لا تخفى على أحد ، وقد ألقى فيه « ابن عربي » دروسا عامة فى مكة (٣) .

كما قرأ كتابا آخرى أشار الى بعضها فى مقدمة كتابه محاضرة الأبرار وذكر منها : مقامات الأولياء لأبى عبد الرحمن السلمى ، وطبقات الصوفية للسلمى أيضا ، وكتاب العزلة للخطابى وكتاب النور وكتاب درجات التائبين ومقامات القاصدين للهوى ، وكتاب حلية الأولياء لأبى نعيم وغيرها .

هذه الكتب التى قراها « ابن عربي » كان لها اثر من غير شك فى توجيهه الى جانب شيوخه الذين التقى بهم .

سلك « ابن عربي » الطريق الصوفى صغيرا ، فقد كان الحافظ الروحى يدفعه دفعا منذ صغره ، وقبل أن يموت والده كان قد اتجه الى القيام ببعض الرياضيات المختلفة ومن بينها العزلة ، مما اثار اهتمام « ابن رشد » كما سبق الإشارة الى ذلك . ولكن « ابن عربي » كان قد أخذ بحظ وافر من العلوم الشرعية ، وبلغ فى اكتسابها مبلغا كبيرا .

(١) ابن عربي ص ١٠٥ .

(٢) أبو الحسن الساذلى ص ٥٢ .

(٣) ابن عربي ص ٢٦٣ .

وإذن فقد كان تصوفه مبنيا على هدى ويقين ، وعلى أساس متين من الشرع الحنيف ، و « ابن عربي » يقرر مرارا أن تصوفه خال تماما من أى اتجاه آخر غير الكتاب والسنة واجماع المسلمين ، ولذلك نراه يكره التقليد ، وقد أشير الى ذلك • وعلمه هذا جعله علما فى علوم الظاهر قبل أن يصبح علما فى علوم الباطن ، وهو الذى أنار له الطريق ليكون سلوكه عن معرفة وثبات وعزم ، وليكون ذلك عاصما له من الزلل أو الرجم بالغيب أو الخطأ •

وأتاحت له فرصة تعرفه على شيوخ الصوفية تمرسه بآدابهم وقيامه عمليا بأنواع المجاهدات التى أخذ بها نفسه حتى تمكن من الانتصار على نفسه ، ومن نقطة لانتصار على النفس كانت انطلاقاته العليا الى فضاء الروح الواسع غير المحدود بقيود المادة والحس • وقد سبق الإشارة الى أن صحبة الشيوخ مفيدة فى توجيه السلوك ، وليس الشيخ مؤثرا فى المريد بقدر ما هو موجه لسلوكه ، حتى يوقفه على مسالك الطريق ، ثم يهتف به : أن انطلق فقد أصبحت على يقين من خطوك •

وليس أدل على ذلك من أن كثيرا من التلاميذ فاقوا أساتذتهم ذوقا ومعرفة وإدراكا ووصلوا الى مقامات قصرت عنها همم مرشديهم وموجهيهم ، وما ذلك بغريب ، فالفروع قد تفوق الأصول ، والأبناء قد يسبقون الآباء ، ولو وقفت همة مريد عند همة شيخه لما كان هناك مكان للطموح ، ولما أصبح مجال للتقدم والسبق ، ولتوقفت الخطوات عند مكان ما لا يبرحه هذا أو ذاك •

و « ابن عربي » تلميذ نجيب من غير شك صاحب شيوخه فانتفع بارشادهم واستفاد منهم سلوكا كان له أثره الطيب المحمود فيما وصل اليه من الهام ومعرفة •

والطريق الصوفى مجاهدات ومعارف ، والمجاهدات طريق

المعارف ، والمعارف ثمار المجاهدات ، وهؤلاء الشيوخ وغيرهم الذين التقى بهم « ابن عربى » كان لهم أثرهم الذى أوضح الرؤية أمام عينيه ، وجعله يتقدم فى طريقه الذى اختاره لنفسه بخطوات ثابتة ، وقطعت الطريق على كل شك خالج نفسه فى صدر حياته الأولى ، ولم يكن لأحد هؤلاء الشيوخ املاء خاص مذهبى فرضه على « ابن عربى » الذى ما لبث أن أصبحت له شخصيته المستقلة التى انطلقت تجوب الآفاق ، تلتقى بالرجال ، وتأتلف بالأخوان ، وتوطد المكانة التى ظفرت بها على مر الزمان .

تمسكه بالشرع :

وكان « ابن عربى » طوال حياته دقيقا فى تمسكه بالشرع الحنيف ، ويحاسب نفسه محاسبة دقيقة على آدابه ، وكان يعتقد اعتقادا جازما أن الخروج على الشرع حرمان وزيف ومخافة ، كما كان يعتقد أن الطريق السليم لادراك المعرفة الصافية هو طريق الشرع لا طريق العقل ، ويقول فى ذلك :

لا تعتقد غير الذى تتلوه فى

النص الذى نطق الكتاب المحكم

وعليه فاعتمدوا وقولوا مثلما

قد قاله عن نفسه واستلزموا

واعبدوا الله الشرع لا تعبدوا

العقل من هادوا اليه وسلموا

فإناس مختلفون فى معبودهم

فستزده معبوده ومجسم

وهذه الأبيات تعطينا صورة حقيقية عن حياة الشيخ الأكبر ، هى اعتزازه القوى بالشرع ، واعتماده فى ادراك العلم على الذوق

والكشف لا على العقل ، ولذلك لم يعول اطلاقا على الفلسفة ، ونفر منها نفورا شديدا ، وقد مر بنا كيف كانت مقابلته لابن رشد فيلسوف زمانه وكيف رثى لحاله ، وكيف اتهم أحد الفلاسفة بالكفر حينما رآه يقول في أحد كتبه : وأنا أريد في هذا الفصل ان ننظر كيف نصنع الها في العالم .

ولكن نفوره من الفلسفة لم يمنع أن يكون مرنا غير متزمت في مناقشة حججهم . ولذلك نسمعه ينصح في مقدمة الفتوحات بعدم المبادرة الى انكار أقوال الفلاسفة والمتكلمين إذ ربما يكون في كلامهم ما يوافق الشرع والعلم الصحيح ، ويقول في ذلك : « أياك ان تبادل الى انكار مسألة قالها فيلسوف أو معتزلى مثلا ، وتقول : هذا مذهب الفلاسفة أو المعتزلة ، فان هذا قول من لا تحصيل له ، إذ ليس كل ما قاله الفيلسوف مثلا يكون باطلا ، فعمسى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق » ولا سيما أن كان الشارع صلى الله عليه وسلم صرح بها ، أو أحد من علماء الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتباً كثيرة مشحونة بالحكم والتبرى من الشهوات ومكايد النفوس وما انطوت عليه من خفايا الضمائر ، وكل ذلك علم صحيح موافق للشرع ، فلا تبادل يا أخى الى الرد في مثل ذلك وتمهل ، وأثبت قول ذلك الفيلسوف حتى تحد النظر ، فقد يكون ذلك حقا موافقا للشرعية لكون الشارع قال تلك المسألة أو أحد من علماء شريعته » (١) .

وهذه النصيحة العاقلة التى ترسم الطريق الصحيح لأدب البحث والمناقشة تحمل الاعزاز الكامل للشرع والاصرار على عدم مخالفته ، وقبول كل ما يوافقه ، وفى الأبيات التالية يوضح طريق العلم الصحيح ، ويقرر أن العلم الموهوب لا يكون الا بالحفاظ على الشريعة والتقانى فى الطاعة والعبادة :

(١) البراهيت والجواهر ص ٣٣ .

ما لقومى عن حديثى فى عمى ما اظن القوم الا ندما
أخذوا العلم عن الفكر وعن كل روح ما له علم بما
عندنا من جهة العلم به جل أن يفهم أو أن يفهم
هكذا قالوا وما عندهم خبر الذوق بعلم العلماء
فعلوم القوم من أنفسهم وعلموى من اله حكما
أنه يعطى الذى يعلمه لعبيد لم يزالوا رحما -
بينهم تبصرهم قد وقفوا فى المحاريب وصفوا القدا •

فهو يفرق بين العلم الذى يكتسبه الانسان من العلماء وبين العلم الذى يهتدى اليه من الله ، والعلم الثانى يفوق الأول ، لأنه جاء عن طريق الذوق للحقائق وادراك الأسرار ، أما الأول فليس الا صفات معلومة وسطورا مركومة ، وهو يلوم قومه لأنهم لا يبحثون حديثه فيدركون صدقه ويعرفون أن علومه موهوبة وعلومهم مكتسوبة ، وفرق بعيد بين العلم الوهيبى والعلم الكسبى ، والله سبحانه وتعالى لا يهب علمه الا لقوم خشعوا وتخلقوا بصفات المؤمنين الذين يقول فى حقهم : رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا (١) •

وطريق العلم الحقيقى المأخوذ عن الكشف والذوق هو تعظيم الشريعة واجلالها واقامتها اقامة صحيحة وهو يقول فى ذلك :

تعظيم ربك فى تعظيم ما شـرعـا
فاصدع فان سعيد القوم من صدعا

والشريعة هى الطريق الصحيح لتحصيل السعادة ، وهذه القصة التى يقدمها لنا فى الفتوحات يمكن أن تعطينا دليلا آخر على

(١) منبر الاسلام عدد شوال ٢٨٦ هـ وصفر ٢٨٧ هـ • والآية المذكورة فى

آخر سورة الفتح •

مدى تمسكه بالشرع . يقول : « رأيت في واقعة وأنا ببغداد سنة ثمان وستمائة قد فتحت أبواب السماء ، ونزلت خزائن المكر الالهي مثل المطر العام، وسمعت ملكا يقول : ماذا نزل اليه من المكر ؟ فاستيقظت مرعوبا ، ونظرت في السلامة من ذلك فلم أجدها الا في العلم بالميزان المشروع ، فمن أراد الله بخيرا وفقه وعصمه من غوائل المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده » (١) .

وهويلج على هذا المعنى كثيرا ، فقد نقل ابن العماد عنه قوله « العارف يعرف ببصره ما يعرفه غيره ببصيرته ، ويعرف ببصيرته ما لا يدركه أحد الا نادرا ، ومع ذلك فلا يأمن على نفسه من نفسه فكيف يأمن على نفسه من مقدور ربه ؟ وهذا مما قطع الظهور سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » (٢) .

وينقل الشسعراني عنه قوله في الباب السادس والأربعين ومائتين من كتاب الفتوحات : « إياك أن ترمى ميزان الشرع من يدك في العلم الرسمي بل بادر الى العمل بكل ما حكم به وأن فهمت منه خلاف ما يفهمه الناس مما يحول بينك وبين امضاء ظاهر الحكم به فلا تعول عليه ، فانه مكر الهى بصورة علم الهى من حيث لا تشعر ، ثم قال : وأعلم أن تقديم الكشف على النص ليس بشيء عندنا لكثرة اللبس على أهله ، والا فالكشف الصحيح لا يأتى قط الا موافقا لظاهر الشريعة ، فمن قدم كشفه على النص فقد خرج عن الانتظام فى سلك أهل الله ولحق بالأخسرين أعمالا » (٣) .

ويعلل الشيخ الأكبر لكون علوم الوهب لا تأتي عن روية وفكر بقوله « لو كانت علوم الوهب نتيجة عن فكر أو نظر لانهضت في

(١) ابن عربى ص ٦٩ .

(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦ .

(٣) اليواقيت والجواهر ص ٣١ .

أقرب مدة ، ولكنها موارد تتوالى من الحق على خاطر العبد ، -
والحق تعالى وهاب على الدوام فياض على الاستمرار والمحل قابل
على الدوام « (١) » . والتوالى لا يكون الا بالمحسافظة على الشريعة
والاستمسك باقامتها .

فهذه العوامل التى اجتمعت من استعداد « ابن عربى » لسلوك
الطريق الصوفى ، الى جانب اجتماعه على شيوخ اعانوه على هذا
الطريق ، الى جانب ما قرأ من كتب حبيبته فى هذا الطريق ، الى
جانب التزامه جانب الشرع فى طريقه وعدم حيدته عنه ، كل ذلك
كون له شخصيته المستقلة العظيمة التى كان لها ذلك الانتاج
الصوفى الضخم عملا وعلما .

ثمار التصوف :

وسرعان ما ظهرت ثمار التصوف فى حياة « ابن عربى » بناء
على ذلك النهج الذى انتهجه .

ظهرت فى صورة عزوف كامل عن الدنيا ولذاتها ، فجر ذلك
ينابيع الحكمة فى قلبه ، فانجلت عين بصيرته ، وارتفعت حجب
الكثافة البشرية فأبصر وأدرك ، واستشف كثيرا من المعانى عن
طريق الكشف أو الالهام .

وبدأ ذلك الكشف عنده بواسطة الرؤى الصادقة التى ورد
عنها الأثر الكريم : لم يبق من علامات النبوة الا المبشرات ، قيل :
وما المبشرات ؟ فقال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح
أو ترى له .

وكثيرا ما رأى « ابن عربى » رؤى تحققت فى عالم اليقظة كما
راها ، ومن ذلك ما يقصه عن رؤياه التى رأى فيها النبى صلى الله

(١) الكبريت الاحمر ص ٦ .

عليه وسلم اقتلع من أحد شوارع « أشبيلية » التى يكثر المرور فيها نخلة كانت تعترض طريق المارة ، فلما أصبح وجد تحقيق رؤياه •

وهناك أثر يقول : وحى المؤمن منامه •• وذلك واقع وصدق ومتواتر فكثير من الناس تتحقق أمامهم فى الحياة أشياء كانوا قد رأوا عنها اشارات أو رأوها بعينها فى المنام •

وقد صاحبت هذه الرؤى الصادقة الشيخ الأكبر فى حياته وزاد عليها ما كان يراه من تجليات ، هى غريبة فى عالم الحس والعقل ، ولكنها ليست غريبة فى عالم الحقيقة والكشف ، ومن ذلك مشاهدته بعض الأشخاص يقتحمون عليه خلوته والباب مغلق عليه ، فيحادثهم ويحادثونه ثم ينصرفون دون أن يفتح باب أو مصراع أو نافذة •

ثم يزيد على ذلك ما كان يصاحب جسده من اشراق فى أثناء ذكره ، ينبعث من باطنه حتى يبدد ظلام الحجرة التى يوجد فيها ، وقد حدثت له هذه الواقعة فى أكثر من مكان ، ومنها « مصر » فى أثناء زيارته لها •

ويزيد على ذلك أن يكون له لقاء خاص مع أرواح الأنبياء والأولياء والمؤمنين السابقين على أنباء مختلفة يفصلها تلميذه « صدر الدين القونوى » بقوله : « كان شيخنا ابن عربى متمكنا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء الماضيين على ثلاثة أنباء : ان شاء الله استنزل روحانيته فى هذا العالم وأدركه متجسدا فى صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية التى كانت له فى حياته الدنيا ، وان شاء أحضره فى نومه ، وان شاء أنسلخ عن هيكله واجتمع به » (١) •

وقد أشار شارح الصلوات الأدرسية الى محادثة الشيخ الأكبر للنبي ادريس عليه السلام والى محادثته للنبي موسى ، كما أشار هو الى ذلك في مواضع مختلفة من كتاب الفتوحات ، ومن ذلك قوله في الباب السابع والستين وثلاثمائة : « اجتمعت روجي بهارون عليه السلام في بعض الوقائع ، فقلت له : يا نبي الله ، كيف قلت : فلا تشبعت بي الأعداء ؟ ومن الأعداء حتى تشبههم ؟ والواحد فينا يصل الى مقام لا يشهد فيه الا الله ؟ فقال لى السيد هارون عليه الصلاة والسلام : صحيح ما قلت في مشهركم ، ولكن اذا لم يشهد أحدكم الا الله فهل زال العالم فى نفس الأمر كما هو فى مشهركم ؟ أم العالم باق لم يزل وحجبتكم أنتم عن شهوده لعظيم ما تجلى لقلوبكم ؟ فقلت : العالم باق فى نفس الأمر لم يزل ، وانما حجبتنا نحن عن شهوده ، فقال : قد نقص علمكم بالله فى ذلك المشهد بقدر ما نقص من شهود العالم فانه كله آيات الله ، فافادنى عليه الصلاة والسلام علما لم يكن عندي » (١) .

وقد تكون هذه المحادثة تمت على نحو من هذه الأنحاء المتقدمة .

وعلى نحو من ذلك كان لقاءه المتكرر للخضر عليه السلام وقد أشار « ابن عربى » الى هذا اللقاء عدة مرات .

وظهرت ثمار التصوف فى غير ذلك ، ظهرت فى تلك الخوارق والكرامات التى كانت للشيخ الأكبر التى يضيق المقام عن ذكرها ، كما ظهرت فى معارفه الفائقة التى فاضت بها أشعاره وامتألت بها كتيبه ومصنفاته .

خُرقة التصوف :

ولابد أن يكون الشيخ الأكبر قد أصبح من الوجهة الرسمية صوفيا بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معان ، والصوفى الرسمى

(١) اليواقيت والجواهر ص ٧٩ .

هو الذى يلبس خرقة التصوف • « وابن عربى » كانت له وجهة نظر حول هذه الخرقة أولا ، فقد كان ينظر اليها على انها اشارة لمعان وجدانية تهدف الى تهذيب السلوك وتقويم النفس والخلق ، وهو يشير الى ذلك بقوله : « وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن ، فان الخرقة عندما انما هى عبارة عن الصلابة والأدب والتخلق ، ولهذا لا يوجد لباسها متصلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن يوجد صلابة وأدب » ، وهو المعبر عنه بلباس التقوى « فى قوله تعالى « ولباس التقوى ذلك خير » •

وقد ارتدى « ابن عربى » خرقة الصوفية أكثر من مرة ، فقد لبسها على يد شيخه على بن عبد الله بن جامع ، وكان الخضر قد لبسها بنفسه لهذا الشيخ ، ولبسها « ابن عربى » فى الموضع الذى لبسها الخضر للشيخ •

كما لبسها قبل ذلك على يد شيخ آخر هو (تقي الدين عبد الرحمن بن على بن ميمون النوروزى) والخرقة أيضا كانت خرقة الخضر •

ويذكر فى الباب الخامس والعشرين من الفتوحات أنه لبس الخرقة من يد الخضر نفسه تجاه باب الكعبة ، وكان قبل ذلك لا يقول بلباسها (١) •

وقد أضاف « ابن عربى » منذ ذلك الوقت الى وجهة نظره الأولى حول الخرقة الادراكات الذوقية التى تصاحب الرداء الحسى ، والتى يعبر عنها بقوله : - « جرت عادة أصحاب الأحوال اذا رأوا واحدا من أصحابهم عنده نقص فى أمر ما ، وأرادوا أن يكملوا له حاله اتحد به هذا الشيخ ، فاذا اتحد به أخذ ذلك الثوب الذى عليه فى ذلك الحال ، ونزعة وأفرغه على الرجل الذى يريد

(١) الكبريت الأحمر ص ١٤ •

تكلمة حاله ، ويضمه فيسرى فيه ذلك الحال ، فيكمل له ذلك الأمر
فذلك هو اللباس المعروف عندنا والمنقول عن المحققين من
شيوخنا « (١) » .

وهذا الكلام وإن بدا غريبا من جهة عدم إمكان حدوث اتحاد
بين شيخ ومريد إلا أنه في عالم الحقيقة غير غريب ، فإن الصفاء
الروحي الذي يكون بين شخصين تمازجا وتصافيا وصلح أن
يقول أحدهما للآخر : يا أنا ، يجعل الاتحاد الروحي غير مستحيل
بينهما ، ويصدق ذلك قول « أبي الحسن الشاذلي » لتلميذه
« المرسى » رضى الله عنهما : « ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا
أنت » (٢) .

وقد اعتز « ابن عربي » بخرقه التصوف واللبسها بيده لكثير
من مريديه ، وقد أشار الى ذلك في أشعاره ومؤلفاته .
وخرقة التصوف لها آداب وشروط ، وهي ليست مجرد ثوب
يلبس ، ولكنها إشارة الى منزلة من منازل القوم ، فيها يوطنون
أنفسهم على احتمال الأذى وانكار الذات واذلال النفس رغبة في
اعزاز الروح وأضعاف النوازع البشرية طلبا للأنس الروحي .
يقول الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل : « أما الصوفية فانهم
يلبسون الخرقه الظاهرة بحجة ابعاد ابصار الناس عنهم استجلابا
لأذاهم واحتقارهم ، ويقدر ما يصيبهم الأذى والاحتقار من الناس
يدنون من الله ويلجئون اليه ويكون ذلك دفعا اليهم عن الأغيار » (٣) .

وفي عبارة « ابن عربي » المتقدمة إشارة الى ذلك ، ولعل السر
في أثر الخرقه يرجع الى ما تحمله روح الشيخ من توجيه الى

(١) ابن عربي ص ٦٣ .

(٢) طبقات الشمراني ج ٢ ص ١٣ .

(٣) منبر الاسلام - شعبان ١٣٨٦ هـ .

روح اللابس فتتأثر بها وتحاول أن تحلق معها في اجواء المعرفة والمشاهدات ، ولذلك لم يسمحوا بارتداء الخرقة لكافة المريدين ولكنهم حين يشاهدون من أحدهم استعدادا خاصا يكون هو المراد .

ولابس الخرقة من حقه أن يغيظ حينئذ لأنه وصل الى منزلة رفيعة وغاية كريمة ، يقول « ابن عربى » معبرا عن ارتدائه خرقة التصوف عن طريق الرمز لنفسه باسم « شرف » :

سالت شرف أن تلبسها	خرقة القوم على شرط الوفا
حين ثابت عندنا من كل ما	كان منها قيل هذا سلفا
فاجبتها الى ما سألت	باعتماد ووداد وصفنا
وامرناها بأن تلبسها	كل من كان بخير عرفنا
وهي لما لبستها سبحت :	حسبى الله تعالى وكفى .

فهو هنا يوضح أن نفسه حين لجأت الى التوبة وتظهرت من المعاصى كان من حقه أن تسمى « شرفا » وأن تطلب ارتداء الخرقة لتصبح من القوم « وأنها لتستحق ذلك بعد التوبة والاشهاد عليها أمام الاتقياء واستمرارها على الطهارة والتوكل والروح الى الله وحده بقلب منيب ومثل هذه النفس يحق لها أن تطلع على أسرار القلوب ، فتعرف منها الخير والذى لا خير فيه فتولى نحو الأول وتعزف عن الثانى ، وانقطاعها الى الله وحده والتسبيح بحمده دون الأغيار يكفيها فى درجة المعرفة وييسر لها طريق الوصول » (١) .

(١) منبر الاسلام - جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ .

مجاهدة وأذواق ومعارف

التصوف مجاهدة ومعرفة • والمعرفة ثمرة من ثمار المجاهدة ،
كما أن المجاهدة طريق لتحصيل المعرفة • وأى تعبير يدور حول
المجاهدة والحث عليها هو صدق التصوف العملى ، كما أن التعبير
عن الثمار التى تثمرها المجاهدة صدق للتصوف النظرى •

والمجاهدة فى الطريق الصوفى سلوك وأخلاق ، فالسلوك يكون
بالتزام ألوان خاصة من العبادة والطاعة يضاف إليها ألوان تختلف
سهولة وعنفًا من الرياضات على حسب حالة السالك وما يرثيه
الموجه •

ولا تكاد تخلو طريقة من طرق الصوفية من ذلك الالتزام الذى
تأخذ به مريديها فى حزم حتى يصلوا الى الغاية المطلوبة •

ولن يتقدم المريد خطوة واحدة ما لم يكن له من الخلق زاد
وراحلة • والصوفى يحتاج الى ما يستحث خطاه ويقوى عزمه ويثبت
ارادته ، فكان لابد من تعبير أدبى يصاحبه فى رحلته ويشد من أزره
ويقوم معوجه ويعينه على عثرات الطريق ، ويبين له آداب الطريق
وما يجب أن يأخذ وما يدع •

اذواق ابن عربي ومعارفه في ذلك :

وقد نظم أدياء الصوفية ونثروا في هذه المعانى الشيء الكثير ، وابن عربي لم يغفل هذه الناحية في شعره ونثره ، فكتب عنها مدقفاً ومقعداً ورواضاً خطوات يسير عليها أبنائوه وتلاميذه وغيرهم ممن تجذبهم الطريق ويستهووهم الهدى •

كما كتب عنها مستحثاً ودافعا الى مواصلة الجهاد في ذلك الطريق ، وبذلك يكون قد ادى للتصوف العملى حقه من الأداء في اتجاهين :

الاتجاه الأول : الطريق الصوفى وما يحتاج اليه من آداب ومعاملات وما يلزم المريد فيها من ضرورات كاتخاذ الشيخ وتصحيح الارادة وملاحظة الوقت والمداومة على الورد وغير ذلك مما يعد الحديث فيه من قواعد التصوف ، والكتابة في ذلك ادخل في باب العلم الصوفى •

والاتجاه الثانى : هو الحث على سلوك الطريق والدعوة الى التخلق بالأخلاق الفاضلة من زهد وتوبة وصدق وايثار وغير ذلك مما يعد الحديث فيه صدى لعاطفة تجعله ادخل فى باب الأدب الصوفى ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك •

وقد ترك الشيخ الأكبر في ذلك ذخيرة حية وكتبه التى طبع منها وما لم يطبع تعد ثروة للتصوف لا تنفذ ذخائرها ، فقد عبر فيها عن كل شيء يتصل بالتصوف ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة الا وادلى فيها ببيان •

تناول الشيخ الأكبر المريد من بدء سلوكه الى نهاية مرحلته في الطريق ، وأوضح له في كل خطوة يخطوها ما يجب عليه وما يستحب له • ويمكن تلخيص ذلك عن كتبه العديدة التى حفلت بكل هذه المعانى والتى جاء بعضها خاصا بذلك ، وجاء بعضها تتناثر في ثناياها تلك المعلومات والمعارف ، ونذكر بعض آرائه هنا للبيان :

١ - ضرورة اتخاذ الشيخ :

اول ما ينبغي للمريد عمله التوبة ، ويجب له أن يبحث له عن شيخ فاضل متمكن توفرت فيه الشروط اللازمة لتربية المريدين ، وقد أشار الى ذلك بقوله : شرط الشيخ أن يكون عنده جميع ما يحتاج اليه في التربية^(١) ويقول : لابد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء وتدبير الأطباء وسياسة الملوك وحينئذ يقال له أستاذ^(٢) . والشيخ ضروري في رأى « ابن عربى » فهو يقول : من لم يكن له أستاذ فإن الشيطان أستاذه^(٣) . وهو ينظر في ذلك الى ضرورة القدوة ، والى أن العقل وحده لا يكفى في اكتساب المعرفة الحقيقية ، وقد سبق الإشارة الى ذلك والى اعتقاده بأن العلم الحقيقى لا يتم الا عن طريق الذوق أو الكشف ، وهذان لا يتمان الا بواسطة التهذيب النفسى والخلقى على يد بصير عارف متمكن .

و « ابن عربى » في ذلك يبنى رأيه على تجربة خاصة اكتسبها من شيوخه الذين صحبهم وقد وافق على هذا الرأى من سبقه ومن لحقه من أئمة التصوف .

فالكلاباذى صاحب التعرف على مذهب أهل التصوف ينشد لبعض الكبار :

من رامه بالعقل مسترشدا سرجه في حيرة يلهو
وشاب بالتلبس اسرارهِ يقول من حيرته هل هو ؟^(٤)

والشيخ حسن رضوان صاحب مطهرة النفوس ينظم ما ننثره هنا باختصار : « ليس في أمكان المريد الاهتداء الى طريق الحق من غير اقتداء ، فلا بد له من دليل عارف يكون له حصنا من الوسوس

(١) شذرات الذهب لابن العماد ج ٥ ص ١٦٦ .

(٢) رسالة الأمر المحكم مربوط ص ٤ .

(٣) الأمر المحكم ص ٣ .

(٤) التعرف بمذهب أهل التصوف ص ٦٣ .

وغيرها ، فإن أخذ الأدب من أصحابه ظهرت له الأسرار الباطنة في ألفاظها فتنفتح به الأرواح وتصفو ، أما الذى يقول : ان الشخص تغنيه كتبه عن الشيخ فهو واهم فى قوله ، « لأنه يمكنه أن يرى كشف الحجب ولا يمكنه صرف النفس عن هواها » (١) .

وشيوخ الصوفية جميعا يوجبون اتخاذ الشيخ - وان كان الدكتور على صافى حسين فى كتابه الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى يرى أن بعض الشيوخ ومنهم الشاذلى لا يستوجبون على المريد اتخاذ شيخ له (٢) .

ولكن الواقع ان الشاذلية اعتنوا بهذا الأمر عناية فائقة وأوجبوا على المريد أن يكون له شيخ ، وقد جاء هذا على لسان غير واحد منهم ، ومن هؤلاء ابن عطاء الله السكندرى الذى يقول فى مفتاح الفلاح « وينبغى لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ فاضل من أهل التحقيق سالك للطريق تارك لهواه راسخ القدم فى خدمة مولاه فاذا وجده فليمتثل ما أمر وليتته عما نهى عنه وزجر » ومنهم ابن عجيبة الحسنى الذى يقول فى غير موضع من كتابه : ايقاظ الهمم على شرح الحكم : لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبدا .

ويحكى الدكتور أبو الوفا التفتازانى حياة ابن عطاء الله السكندرى - وهو لسان حال الشاذلية - قائلا : « ونخلص من كل ما سبق الى أن ابن عطاء الله السكندرى كان خاضعا فى حياته الصوفية لما يخضع له السالكون من اشراف شيخ مرشد بصير عارف بالطريق الى الله ، ولما يصطنعونه من مجاهدة النفس ومحاربة يرى أن التقلب دليل على عدم الاخلاص فى عبادة الله » (١) .

(١) روض القلوب المستطاب ص ٢٨٣ .

(٢) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ٤٤ .

(٣) ابن عطاء الله ونصوقه ص ٤٤ .

وان كان هناك من فرق بين رأى « ابن عربى » ورأى « الشاذلى » فهو أن ابن عربى يلح في « تحريم تغيير الشيخ بل زيارة غيره بدعوى أن يجد عند هذا الآخر أفضل وأيسر ، إذ هو يرى أن التقلب دليل على عدم الاخلاص في عبادة الله » (١) .

أما الشاذلى فقد كان متسامحا في هذه الناحية ، وكثيرا ما كان ينصح بعض المريدين بالتوجه الى غيره من الشيوخ اذا كان في ذلك نهوض لحالهم (٢) .

ولا يتعارض رأى « ابن عربى » مع سلوكه الخاص فقد عرفنا أنه صاحب كثيرا من الشيوخ قدره بعض المترجمين لحياته بخمسة وخمسين شيخا ، لأنه كان متمكنا من حاله لا يخشى عليه من ذلك التغيير ، ولم يكن اصطحابه لهؤلاء الشيوخ الا طلبا في الاستزادة من « البركة » التى يحملونها ورغبة في التعرف الى احوالهم وتواضعا لهم . أما المريد الذى يقدم له « ابن عربى » هذه النصيحة فهو الذى عرضه للوساوس والأوهام ، وهو يخشى عليه من تقلبه وتردده بين الشيوخ انفراط العزيمة وانحلال العقد وضياع الاخلاص .

وضرورة اتخاذ الشيخ في رأى « ابن عربى » وغيره من الصوفية لا تتنافى مع استعمال العقل الذى اعتز به الاسلام فالعقل ضرورى فى النواحي التى أوصى الله سبحانه وتعالى باستعماله فيها وذلك مثل التفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار للاستدلال من ذلك على قدرة الله تعالى وعظمته وأحاطته ، وهذه درجة عظيمة من درجات العبادة ، أما استعمال العقل فى الوصول الى ذات الله فممنهى عنه .

(١) ابن عربى ص ١٢٨ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « شاذلى » .

فإذا ما علم ضرورة اتخاذ الشيخ وجب على المريد أن يراعى مع هذا الشيخ آداباً معلومة حتى يمكنه الاستفادة الكاملة من مصاحبته ، ومن هذه الآداب في رأى « ابن عربى » أن يكون باراً بأستاذه وألا يعترض عليه بقلبه أو بلسانه ، وأن يكون بين يديه « كالميت بين يدى الغاسل » وأن يكون مطيعاً لكل ما يصدر إليه من الشيخ من تعليمات وأن يقتفى خطواته وأن يحترمه في غيبته وحضوره وأن يتحجب إليه دائماً وأن يؤثره على نفسه (١) .

وليس في ذلك الغاء لشخصية المريد ولكنه تثبيت لها ، لأن الهدف من وراء ذلك تنقية النفس من كافة شهواتها وفي مقدمتها الرغبة في التسلط والغرور ، ولن يقضى على ذلك إلا إذا قلعت أظفارها بالخضوع الكامل الذى يحق الإرادة لمن يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة ، فهو بذلك يमित نوازع النفس ليحيى معالم الروح ، ويقضى على داء الأثرة ليقم معانى الايثار ، وليس ذلك غريباً ، فالتواضع رفعة والكبرياء ذل وقد امتدح الله قوما يحبهم ويحبونه بأنهم أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين ، وإذا كان الله قد أمرنا بخفض جناح الذل من الرحمة لوالد الجسد فمن الأولى أن يكون ذلك الخفض لوالد الروح ورسالته أشرف ومهمته أقدس .

وأدب الصوفية مع شيوخهم مستمد من أدب الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يقول الله فى حقه : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » (٢) ، ويقول فى حقه : « النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم » (٣) وشيوخ الصوفية

(١) الامر المحكم ص ٥ - مواقع النجوم ص ١٠٢ .

(٢) النساء ٦٥ .

(٣) الاحزاب ٦ .

يسيرون على قدم رسولهم الكريم • ويؤدون واجبهم نحو رسالته السامية ، فلا بد أن يتحلى تلاميذهم بالأدب الذى كان يتحلى به الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم •

٢ - الخلوة :

ويأمر الشيخ مريده بالخلوة اذا رأى فى ذلك ما يصلحه ، وعلى المريد حينذاك الا ييارحها الا باذن شيخه فى الحدود التى توضحها أصول الطريق ، وهى أن يكون خروجه لأداء جماعة أو قضاء حاجة أو سعى فى ضرورات الرزق •

فاذا ما خرج فعليه أن يكون غاض البصر معلق القلب بالله ذاكرا له بلسانه مغلقا سمعه عن كل ما يؤذيه فى باطنه أو يقطع عليه تأمله ونكره وحضور قلبه وهمته •

وفى الخلوة يمارس الوانا من الذكر والتساييح وتلاوة القرآن ، وصيغ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وقد يطالع بعض الكتب الصوفية والشرعية التى تعينه على وقته •

وتثمر الخلوة فى رأى الشيخ الأكبر وغيره من الصوفية ثمارا عظيمة متى روعى فيها أدبها المطلوب وهو لا يخرج عما أشير اليه ، يضاف اليه الاقلال من الطعام وطول السهر وكثرة التأمل •

وهذه الثمار اليانعة للخلوة تظهر فى العفة والطهارة وذلك بسبب البعد عن المغريات ، وفى الزهد لأنه أصبح حالا للقلب بما انطبع فيه من كراهيته للدنيا وتعال على مبادئها ، وفى التجريد الذى يعد قمة أحوال الصوفية وذلك بما يصحب المريد من تفويض كامل وتوكل حقيقى ، ويصل به الى مقام البتول مريم التى كانت « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم ، انى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » •

كما أن من ثمارها التواضع الذى ينشأ عن شهود الافتقار الكامل الى الله ومشاهدة عظمته وقدرته وهيبته ، وكلما اشتدت هيبة المريد لله ازداد انمحاقه والشعور بضعفه وذله ، ومن كلام ذى النون المصرى « من أراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذيب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيئته » وهذا المعنى مستمد من قوله تعالى : يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد (١) .

ومن ثمار الخلوة الصفاء كما هو ثمرة للتواضع أيضا ، ويفهم ذلك من قول ذى النون السابق . والصفاء هو المقدمة الكبرى لما يأتى بعد ذلك من نتائج قيمة فى الطريق الصوفى ، والصفاء ينتج عن انجلاء مرآة القلب بذهاب ما تراكم عليها من ظلمة وكثافة وبانجلائها تصبح قابلة لمختلف الادراكات الذوقية والكشفية .

وينتج عن الخلوة مدى استعداد المريد لبلوغ المقامات والأحوال المختلفة كالنكاح وما يترتب عليه من تسليم وتفويض والمحبة وما تستتبعه من شوق ووجد وأنس وقرب ، والمعرفة وما تحققه من فناء وبقاء .

٣ - استخدام الوقت :

ويعتنى « ابن عربى » شأنه شأن غيره من الصوفية بتدبير الوقت وحسن استخدامه والمتتبع لكلامه فى كتبه وبخاصة الأنوار ومواقع النجوم يرى كيف يلح على ضرورة استفادة المريد من وقته الذى هو كالسيف ان لم يقطعه المريد بالعمل قطعه الوقت بالوقت .

والوقت لا بد أن يكون مقسما بين فعل الخير والعبادة ، ويدخل

(١) فاطر ١٥ .

في نطاق فعل الخير السعى في اكتساب الرزق الحلال وفي الاحسان والتصدق واعانة الغير وعيادة المريض وتشجيع الجنائز والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من أفعال الخير التي لها صلة وثيقة بترقية المجتمع ، ويدخل في نطاق العبادة كل ما يعود على النفس من تخلية وتصفية وتحلية . فالتخلية بالتوبة ، والتصفية بالرياضة والتحلية بالذكر والتسبيح والتلاوة وما شابه ذلك .

على أن ذلك كله لا يمكن أن يؤتى ثماره المطلوبة ما لم يكن تحت ارشاد شيخ ، ويتصل بذلك في حسن استخدام الوقت محاسبة النفس ومراقبتها ، حتى يقطع الطريق على وساوسها وخطراتها ، والمحاسبة لها أثر كبير في تهذيب النفس وترقية الوجدان وتحسين السلوك ، وعليها يتوقف نجاح المريد في الوصول .

ويرى « ابن عربي » أن يقسم المريد ليله ونهاره تقسيما دقيقا ويختص كل ساعة بأعمال صالحة معينة ، وقد فصل ذلك في كتابه « كنه ما لا يد للمريد منه » ووضع تخطيطا اجماليا لتوزيع الساعات بما يشغل أوقات الفراغ من تلاوة ومحاسبة وفكر (١) .

وتدبير الوقت له اثر كبير في تنظيم الحياة لدى الصوفية ، ولذلك نراهم لا يشكون من أوقات الفراغ كما يشكو غيرهم ، ولكننا نراهم كثيرا ما يشكون من ضيق الوقت الذي لا يسعفهم بأداء حقوق الله الواجبة الأداء وشاعرهم يقول في ذلك :

وزادى قليل ما أراه مبلغى اللزاد أبكى أم لطول مسافتي

وبمنهج المحاسبة اطمأنوا في حياتهم ، وفرغوا من القلق النفسى الذى نغص حياة كثير من الأفراد ، لأنهم أقاموا من ضمامئهم سلطانا حيا ، يراقب تصرفاتهم وسلوكهم ، ولذلك ارتفعوا بنفوسهم

• (١) ابن عربي ص ١٥٦ .

عن الأنانية وحب الذات ، كما بعدوا عن مسالك النفاق ومدارج
الظهور .

٤ - الأخوة :

اعتنى « ابن عربى » بالأخوة فى الله وحياته الطويلة الحافلة
قضاها فى صحبة اخوان صادقين كان يعتز بأخوتهم ويتغنى
بصداقتهم ويسعى فى حاجاتهم ويؤثرهم على نفسه ، وكان يتحدث
كثيرا عن الأخوة التى تربطه بغيره ممن اتفق مشربه واتحد هدفه
معه . وهو يذكر شيوخه وأخوانه فيقول عنهم « وما من واحد
الا وعاشرته معاشرة مودة وامتزاج ومحبة منهم فينا » .

و « ابن عربى » يكره التكلف بين الاخوان بل يحب أن يتعاملوا
فيما بينهم بالانبساط وعدم التكلف ، وله كتاب أشار اليه فى
مجلس جماعة من أصدقائه الذين كانوا يحتشمون اسمهم : « الارشاد
فى خرق الأدب المعتاد » وكان يهدف من الإشارة اليه أن ينبسطوا
معه فى مجلسه ويكفوا عن التكلف والسكون . وهذه الناحية
السلوكية تدل على مدى عنايته بالآخاء فى الطريق الصوفى ، ولذلك
نجدته ينص عليه كثيرا فى رسائله ومصنفاته ، ويرى أن الأخوة
تعين على السفر وتبديد الوهن فى العزم وتقوى الهمة وتبعد الملل .

ويرى « ابن عربى » أن المرید ينبغي أن يكون اثارة غير قاصر
على اخوانه ، بل يجب أن يشمل أفراد المسلمين ، فهذا من صفات
الصديقين فعليه أن يبذل ما له بسخاء وأن يخدم الفقير وأن يعين
المحتاج وأن « يعين الحمال على رفع حملة وأن يعنى بالمرضى ، وأن
يهدى الضال ، وينبغى عليه أن يفضل الفقير على الغنى دائما ،
وفى ذلك لون من ألوان الشجاعة الأدبية ، ومظهر يدل على قوة
الشخصية التى تنأى عن مواطن الرياء والمداينة . » وعلى الصوفى

أن يسير في الطرقات مزيلا ما يعترضها من عقبات تقف دون سير
الغير من أحجار وأشواك» (١) .

هذه السعة الخلقية التي يراها « ابن عربى » لازمة للمريد
وضرورة من ضرورات سلوكه في مجتمعه غير مفرق بين أفراد هذا
المجتمع ، هى التى تحتّم على المريد أن يكون سلوكه من باب أولى
مع اخوانه غاية في الايثار والتعاون والصفح والمودة والرعاية .

٥ - ما يعين على بلوغ الغاية :

ولم يترك « ابن عربى » التنويه على الأسباب التى من شأنها
تبلغ بالمريد الى أعلى درجات الرقى والكمال وهى كثيرة سبقت
الإشارة الى بعضها ومن بين هذه الأسباب :

١ - **المحاسبة :** وهى تعد ركنا أساسيا فى الطريق الصوفى ،
وعمادها الشرعى قوله عليه الصلاة والسلام : حاسبوا
أنفسكم قبل أن تحاسبوا .

وأثرها النفسى قوى لأنها تترك المرء يصلح نفسه أولا
بأول ، وقد اعتنى الصوفية قديما وحديثا بهذا الأساس ، « وابن
عربى » له فى ذلك تجربة عملية فقد صاحب بعض الشيوخ
الذين كانوا يحاسبون أنفسهم على ما يقولون ويفعلون ، فزاد
هو عليهم محاسبة نفسه على خواطره ، وتلك مرتبة عليا
وجديرة بأن تبلغ بصاحبها الى الكمال الخلقى والروحى .

٢ - **الدعاء :** ويعتنى « ابن عربى » بالدعاء على أنه أحد الأسباب
التي يبلغ بها المريد غاية الطريق ، والدعاء يتنوع بين صلاة
وذكر وتأمل وتلاوة .

(١) ابن عربى ص ١٥٣ .

(١) الصلاة ، وهى فى اللغة الدعاء ، وتجمع بين الابتهاال والتسبيح والمناجاة والتلاوة والصلاة على النبى فى اذائها ، وهى اذ اديت على شريطتها المطلوبة حققت معنى الخشوع والخضوع والالتقياد الكامل وحصول الأئس واستحضار الهية وأصبحت الصلة الحقيقية بين العبد وربّه ، وتنوع الصلاة بين الفرض والنفل ، وهى كلما ازداد المرید إقامة لها ازداد اقبالا على الله وقربا منه ومحبة له .

(ب) الذكر ، وله أثر نفسى رائع ، فبذكر الله تلمئن القلوب ، وله أثر روحى يظهر من قوله تعالى : اذكرونى اذكركم ، ومن الأثر القدسى : اذا ذكرنى عبدى فى ملا ذكرته فى ملا خير من ملئه .

والذكر يورث الصفاء ويعمر القلب لأنه يقوم بمهمة التصفية والتحلية اللتين تعقبان التخلية ، والتخلية (أى تخلية القلب من آثاره المذمومة) تكون بالاستغفار والتوبة والندم ، فاذا ما طهر القلب وجب شغله وتعميره ، ويتم ذلك بواسطة الرياضة والذكر ، والذكر يورث انوارا تتمكن فى القلب وتكشف أمامه الحجب .

(ج) التأمل ، وهو ضرورى للمرید لأنه عبادة الصديقين ، والتأمل فى رأى « ابن عربى » لا يكون فى ذات الله ، استنادا الى الأثر الوارد : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله ، والأثر الوارد : البحث عن الذات اشراك والعجز عن الادراك ادراك . ويورد ابن عربى فى ذلك شعرا :

قل لامرئى رام ادراكا لمخالقه
العجز عن درك الادراك ادراك
من دان بالحيرة الغراء فهو فقى
لغاية العلم بالرحمن دراك
واى شخص أبى الا تحقيقه
فان غايته جحد واشراك

فالعجز عن درك التحقيق شمس ضحي جرت بها فوق جو النسيك أفلاك

فالتأمل فى رأى « ابن عربى » يجب أن يكون للعة والاعتبار
ولادراك قدرة الله وسعة حيطته وعلمه وأنه فعال لما يريد ، وذلك
مطلوب شرعا لقوله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف
الليل والنهار لآيات لأولى الألباب - الذين يذكرون الله قياما وقعودا
وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت
هذا باطلا ، سبحانه عذاب النار » (١) .

أما التفكير فى ذات الله فممنهى عنه فى رأى « ابن عربى » بمقتضى
الفهم من قوله تعالى « ويحذركم الله نفسه » (٢) أى لا تتفكروا فيها .

وهذه حقيقة اتفق الصوفية وغيرهم عليها ، « فالمحارث المحاسبى
يقول : أكمل العاقلين من أقر بالعجز أنه لا يبلغ كنه معرفته . وهذه
حقيقة لا مرأ فيها وهى العجز عن ادراك ذات الخالق ، ومن حاول
أن يدرك فعجزه دون الغاية وأقرب بعجزه فهو غاية الادراك ، والعجز
كله لكل المخلوقات حتى الملائكة التى تحف بالعرش ، وهى الرقائق
النورانية ، وقد التقى فى ذلك صوفية المسلمين وفلاسفتهم » (٣) .

وفى الحقيقة ان الاعتراف بالجهل فى هذه الناحية هو عين
المعرفة ، لأنه دليل تام على عظمة الله واحاطته وقدرته الخارقة التى
لا يحيط بها علم ولا يدركها عقل . نقل صاحب الشذرات عن ابن
عربى قوله : « أجمعت الطائفة على أن العلم بالله عين الجهل به
تعالى » (٤) .

(١) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) آل عمران ٢٨ .

(٣) عبد العزيز الأهل - منبر الاسلام رجب ٣٨٦ هـ .

(٤) الشذرات ج ٥ ص ١٩٦ .

وقد عبر عن هذا المعنى أحد صوفية العصر الحديث هو شيخنا السيد محمد على منصور الأقدمي قائلا فيما كان يريده أحيانا :

عجزت - نعم - عن درك سر وجودي

وجهمت حتى صار جهلى شهودى

واجلاء الصحابة الذين كانوا نبراس هدى لنا ورد عنهم ذلك الاقرار بالعجز الذى هو عين الادراك ، فقد سئل ابو بكر الصديق رضى الله عنه : بم عرفت ربك ؟ قال عرفت ربي بربي ، قيل : وكيف عرفت ؟ قال : العجز عن الادراك ادراك .

(د) التلاوة : وقد أدرك ابن عربى سرها منذ كان مصاحبا لوالده وراه مواظبا على تلاوة القرآن الكريم وأدرك منه سر الأثر المشهور « يس لما قرئت له » فقد تلاها عند رأسه وهو مريض فى غيبوبة الحمى ، فرأى أجساما نورانية لطيفة تحيط به وتدفع عنه أذى المرض ، ويروى عنه صاحب كتاب ابن عربى هذه القصة التى وردت فى الفتوحات « مرضت فغشى على فى مرضى بحيث انى كنت معدودا فى الموتى ، فرأيت قوما كريهي المنظر يريدون اذائتى ، ورأيت شخصا جميلا طيب الرائحة شديدا يدافعهم عنى حتى قهرهم ، فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا سورة يس ادفع عنك ، فافقت من غشيتى تلك ، وإذا بأبى رحمه الله عند رأسى يبكى وهو يقرأ سورة يس وقد ختمها فأخبرته بما شهدته » .

وأدرك سر سورة الفاتحة وهى أم الكتاب من فاطمة بنت ابن المثنى القرطبى فقد كانت تتلوها فيتيسر أمامها كل مطلوب ، ويروى « ابن عربى » عنها قولها : انى والله لمتعجبة ، لقد أعطانى حبيبى فاتحة الكتاب تخدمنى فوالله ما شغلتنى عنه ، .

ويعلمنا « ابن عربى » كيف كانت تقرأ هذه المرأة الفاتحة

فيقول : - « انشأت تقرأ فاتحة الكتاب وقرأت معها ، فعلمت مقامها عند قراءة الفاتحة ، وذلك أنها تنشئها بقراءتها صورة مجسدة هوائية » .

ومن الشيوخ الذين صاحبهم ابن عربي يراظبون على تلاوة القرآن « محمد بن قسوم الأشبيلي » الذي يقول عنه : « انه يترنم بالقرآن ويتلذذ به تارة في حضرة التوحيد وتارة في الجنة وتارة في الاعتبار وتارة في الأحكام بحسب ما تعطيه الآية حتى يصبح فيخرج من صلاته وقد أطلع على علوم كثيرة في تلاوته من الله تعالى ، لم تكن عنده فهمه الله تعالى أياها من القرآن » .

وتلاوة القرآن لها حقا ذلك السر العجيب ، وصاحبها من الذين لهم تجارة رابعة « ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (١) .

وآداب التلاوة عند « ابن عربي » يوضحها بقوله : - « اذا وفقك الله وتريد أن يسمع الحق جل اسمه منك تلاوتك ويرسمك في ديوان التالين ، فاعلم منازل التلاوة ومواطنها ، وذلك أن تعلم أن على اللسان تلاوة وعلى الجسم بجميع أعضائه تلاوة وعلى النفس تلاوة وعلى القلب تلاوة وعلى الروح تلاوة . فتلاوة اللسان ترتيل الكتاب على الحد الذي رتب المكلف له ، وتلاوة الجسم المعاملات على تفاصيلها في الأعضاء وتلاوة النفس التخلق بالأسماء والصفات ، وتلاوة القلب الاخلاص والفكر والتدبر وتلاوة الروح التوحيد » (٢) .

٦ - المقامات والأحوال :

الحال يطلق لغة على الوقت الذي أنت فيه وما عليه الشخص من خير أو شر ويطلق اصطلاحا لدى الصوفية على المعنى الذي يرد

(١) سورة فاطر ٢٩ .

(٢) مواقع النجوم ص ٨٢ .

على القلب بلا تصنع ولا اكتساب ، والمقام يطلق اصطلاحاً على « ما يتحقق به العبد من الآداب مما يتوصل اليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف » (١) .

والمقامات هي مراحل الطريق الى الله وفيها تظهر حقائق السالكين والمريدين كل على حسب قدرته وعزيمته وقوة صبره في الجهاد .

وعلى هذا فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب .

ويختلف الصوفية في تحديد المقامات والأحوال على حسب انواقهم ومشاربهم ، فالغزالي رضى الله عنه يرى أن المقامات هي التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة (٢) .

وابن عطاء الله السكندري يرى أنها هي التوبة والزهد والصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والتوكل والمحبة (٣) .

والطوسي - رضى الله عنه - يرى أنها التوبة والورع والزهد والفقر والتوكل والرضا (٤) .

أما ابن عربي فيذكر « أسنين بلاثيوس » في كتابه أن أهم المقامات التي يذكرها في « الفتوحات » هي التوكل والشكر والصبر والرضا والعبودية والاستقامة والاخلاص والصدق والحياء والحرية والغيرة والولاية والرسالة والنبوة والمحبة ، وفي كتابه « تحفة السفيرة » و « مواقع النجوم » يذكر بعض المقامات الرئيسية مثل : الاستواء والتسليم والأنس والخوف والرجاء واتحاد الارادة مع ارادة الله (٥) .

(١) الرسالة التفسيرية .

(٢) الأحياء الجزء الرابع .

(٣) التصوف في الشعر العربي .

(٤) اللمع للطوسي ص ٦٥ .

(٥) ابن عربي حياته ومذهبه ص ١٩١ .

ومن هذا ندرك أن ابن عربي بينه وبين غيره من الصوفية موافقة على بعض المقامات كما أنه انفرد عن غيره بنكر بعض المقامات كما انفرد غيره كذلك .

واختلافهم راجع الى تعدد الأنواق وهي قواعد غير ثابتة ولكنها اجتهادية تدرك من واقع ما يكشف لهم من علوم ومعان ، فما يكشف لهذا قد لا يكشف لذاك وما يدركه رجل قد لا يدركه رجل آخر .

٧ - أسرار العبادات :

وابن عربي في دعوته الى التمسك بأسباب النجاة ووسائل الكمال وفي مقدمة ذلك المواظبة على العبادات المختلفة لا يغفل عن أسرار هذه العبادات وما تهدف اليه من غايات وتربية للروح وإيقاظ للمشاعر .

وهو قى ذلك ينبه على أهمية الشرع وضرورة اتباعه وعدم الغفلة عنه لما يحتوى عليه من دقائق يظن اليها اليقظ ويغفل عنها الكسول .

والشرع في رأى « ابن عربي » ليس قشرا والحقيقة لها كما يرى البعض ، ولكن الشرع في رأيه شجرة فارعة ثمارها الحقيقة والمعرفة، وكلما أمعن المريد في ممارسة الشرع ظهرت له حقائق وتكشفت أمامه أسرار لا يمكن أن يدركها من غير طريقها الأساسى وهو إقامة الشريعة على أصولها .

ولذلك نسمعه ينبه مرارا على أن العلم الحقيقى لا يمكن ادراكه بغير الشرع وتطبيق محكم الكتاب والسنة - وقد مر بنا بعض النصوص الواردة في ذلك - ونضيف اليها قوله : « لا يصح لعبد مقام المعرفة بالله وهو يجهل حكما واحدا من شرائع الأنبياء

فمن ادعى المعرفة واستشكل حكما واحدا في الشريعة الحمديدية
أو غيرها فهو كاذب» (١) .

ويقول الشعراني تعليقا على ما فهمه من قول « ابن عربي » في
كتابه الفتوحات حول هذا المعنى « يجب على الولي متابعة العمل
بالشريعة المطهرة حتى يفتح الله تعالى له في قلبه عين الفهم عنه فيلهمه
معاني القرآن ويكون من المحدثين » (٢) .

ومما يدل على تعمقه الى باطن الأشياء قوله في الباب الخامس
والعشرين من الفتوحات : « أن معنى « عبرة » في قوله تعالى
« أن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » من العبور لا من الاعتبار . ومعنى
ذلك لا تقفوا على ظاهر الأمر بل اعبروا من مظاهر تلك الصورة
الى باطنها » (٣) .

ولكى ندرك مدى عناية ابن عربي بالتنبية على أسرار العبادات
نستمع اليه وهو ينصح المريـد وهو يتأهب للصلاة بقوله : - « فإذا
توضأت فاسع في الخروج من الخلاف وتوضأ أسبغ وضوء ، وسم الله
فى بدء كل حركة ، واغسل يديك بترك الدنيا متهما ، ومضمض بالذكر
والقلادة ، واستنشق بشم الروائح الالهية ، واستبر بالخضوع وترك
الكبر ، واغسل وجهك بالحياء ، وذراعيك بالتوكل ، وامسح رأسك
بالمذلة والافتقار والاعتراف ، وامسح أذنك باستماع القول واتباع
أحسنه ، واغسل قدميك لايطاء كثيب المشاهدة ، ثم اثن على الله بما
هو أهله ، وصل على رسوله الذى أوضح لك سنن الهدى صلى الله
عليه وسلم ، وقف فى مصلاك بين يدي ريك من غير تحديد ولا تشبيه ،

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦ .

(٢) الكبريت الأحمر ص ٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦ .

وواجهه بقلبك كما تواجه الكعبة بوجهك وتحقق أن ما في الوجود أحد الا هو وأنت فتخلص ضرورة ، وكبره بالتعظيم ومشاهدة عبوديتك وإذا تلوت فكن على حسب الآية المقلوة فان كان ثناء عليه فكن أنت المحدث وهو الذى يتلو كتابه عليك فيعلمك الثناء عليه فيما يثنى به على نفسه ، وكذلك فى آية الأمر والنهى وغير ذلك لتقف عند حدوده وتعرف ما وجه عليك سيدك من الحقوق فتحضرها فى قلبك لأدائها والمحافظة عليها ، والحظ ناصيتك بيده فى ركوعك ورفعك وسجودك وجميع حركاتك فتسقط لك الدعوى فى هذه الملاحظة حتى تسلم ، فإذا سلمت فابق على عقدك أنه ما ثم أحد غيرك وربك سبحانه ، وسلم باللفظ على من أمرك فان سلامك على نفسك «(١)» فهو فى هذا النص المنقول من التدبيرات الالهية يدرك السر من التعبد وينبه على ملاحظته عند ممارسة العبادة .

يقول فى الباب الثامن والستين من الفتوحات : اشترطت النية فى التيمم ولم تشترط فى الوضوء لأن الماء سر الحياة فهو يعطى الحياة بذاته سواء قصد أو لم يقصد بخلاف التراب لأنه كثيف لا يجرى على العضو ولا يسرى فى وجه القصد فافتقر الى القصد الخاص بخلاف الماء(٢) .

وهذا ادراك خاص لسر من أسرار الطهارة بالماء والتيمم .

وله فى معنى الاستنشاق فهم رائع يوضحه فى هذا الباب ، « فالاستنشاق بالماء فى الأنف لأن الأنف محل العزة والكبرياء والماء طهارة ، فكان فى ذلك إشارة الى نثر الكبرياء والتبرى منه بالانقياد والخضوع لله(٣) » .

(١) ابن عربى ص ١٦٦ .

(٢) الكبريت الأحمر ص ٣٠ .

(٣) محاضرة الأبرار ج ١ ص ١٦٣ .

ويقفهم من الصلاة سر اشتقاقها من « المصلى » وهو الذى يلى
السابق فى الحلبة ، والسابق هنا هو التوحيد ، والمصلى هى الصلاة ،
ويشهد لذلك حديث : بنى الاسلام على خمس •
« وابن عربى » يفهم من معنى استلام الحجر الأسود فى أداء
فريضة الحج معنى ساميا يقضى بالبايعة لله ، وهو ينظر الى الأثر
الوارد : الحجر يمين الله فى الأرض • وينشد :

من يطع الإرسال صدقا فقد	أطاع من أرسلهم والسلام
كمثل من بايع معبوده	وانما بايعه فى الأمام
وقد أتى أوضح من ذا وذا	فى الحجر الأسود بالاستلام
فقل لمن يفهم ما قلت له	بعد الذى سمعته : لا كلام

كما يدعو فى أبيات أخرى الى تقبيل الحجر الأسود مشيرا الى
مداومة الاتباع ورعى المودة وحفظ الذمام ومنبها على رتبة المعرفة •
يمين المؤمن الركن اليمانى أبايعه لأحظى بالأمانى
يمين مالهأ حجب تعالت عن الحجاب والحجب المبانى
أمنت بلثمها من كل سوء يصيرنى الى دار الهوان (١)

وهذه الأسرار التى توصل اليها الصوفية من العبادات هى
المفهوم الزائد لهم ، وهى الخاصية الدقيقة التى أطلق عليهم من
أجلها : علماء الحقيقة ، ولقد فهم الصوفية ذلك لأنهم تناولوا معنى
العبادات بأرواحهم وأقاموها بأركانها وشعائرها الحقيقية المطلوبة
وكان الاخلاص رائدهم فى اقامتها ، وذلك هو المطلوب فعلا لقوله
تعالى « فاعبد الله مخلصا له الدين » ولقوله « وما أمروا الا ليعبدوا
الله مخلصين له الدين حنفاء » والاخلاص هو روح العبادة ، وهو سر
من أسرار الله يضعه فى قلب من يشاء من عباده • وبالاخلاص
استنارت قلوبهم فأدركوا من المعانى ما لم يدركه غيرهم •

(١) محاضرة الأبرار ج ١ ص ١٦٢ •

تعبيرات في التصوف النظرى :

وفي التصوف النظرى الذى يعد ثمرة الجهاد المتواصل في الطريق الصوفى ، كما يعد صدق للانفعالات العنيفة التى تتردد في نفس الصوفى وتمتلئ بها روحه ، ويعد تعبيراً عن المعارف التى يتذوقها أو يكشف بها ترك « ابن عربى » في ذلك ثروة ضخمة كان لها أثرها بين الصوفية والفقهاء . وسنعرض لموضوعين من ذلك .

١ - الحب :

ويقصد به هنا حب الله جل وعلا ، وهو عند « ابن عربى » حب يسمو على كل شئ ويرتفع بالانسان الى درجة من القداسة تصل به الى أعلى المراتب ، لأنه لا بد أن يكون ثمرة لما مر به من جهاد متواصل ، وتحقق به من أرفع آيات الأخلاق والفضائل .

وحب الله تضاربت فيه الأقوال بين الفقهاء والصوفية ، فالفقهاء ينكرونه على أساس أن حب الله لا بد أن يتمثل في طاعته والاعتداء بنبيه مصداقاً لقوله تعالى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ولا يجوز أن يقع الحب الا بين متماثلين ، ولا مماثلة بين العبد والرب (١) .

ولكن الصوفية يجيزونه على أساس أن القرآن الكريم قد صرح به في قوله تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله » وقوله « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وفي الحديث الشريف « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

وليس هنا مظهر لهذا الحب أبلغ من التذلل بذكره والتفانى في عبادته والتعظيم لاسمه والهيام بجماله ، والتعبير عن ذلك بما يشبه

(١) الادب الصوفى في مصر ص ٩٥ .

الغزل الحسى صوّنا لهذه العاطفة النبيلة المستكنة في القلب
والشعور •

قال الدكتور زكى مبارك « تكلم الصوفية جميعا في الحب
لأن هذه الحال هى الفاصل بينهم وبين أهل الشريعة الذين يعبدون
الله طمعا في الثواب وخوفا من العقاب ، ولا يستقيم حال المتصوف
الا اذا قرغ من دنياه وأخراه فلا يكن له ما رب الا لقاء الحبيب» (١) •

وحب الله غاية نبيلة لدى الصوفى - ولدى ابن عربى بصفة
خاصة - وهو طريق للمعرفة الكاملة عنده ، فهو يرى أن المحبة
أشواق واحترق ، أما المعرفة تمكين وثبات ويعبر عن ذلك بقوله :
المحب اذا سكت هلك ، والعارف ان لم يسكت هلك (٢) •

ولأن المحبة طريق المعرفة يفسر هذا البيت الوارد في ترجمان
الأشواق :

عهدى بمثلك عند بانك قاطفا

ثمر الخدود وورد روض أينع

بقوله : - « كم شهدت من محب مشتاق بروضك يقطف من
ثمار معارف القيومية ، يعنى التخلق بها ، وقد اختلف أصحابنا في
التخلق بصفة القيومية ومذهبى التخلق بها ، وفيما تحمله الوجنات
من الحمرة المستفادة من (ورد روض أينع) اشارة الى مقام
الحياء الذى نتج عن المراقبة والمشاهدة » (٣) •

(١) بين التصوف والأدب ص ٨١ •

(٢) رابعة المدية ص ١٢٥ •

(٣) ذخائر الأملق ص ١٠٤ بتصريف •

وقد تقلب « ابن عربى » فى مقام الحب ، واصطلى بناره وله فى ذلك آثار رائعة سبق الإشارة الى بعضها - ولا يفى المقام بالافاضة فيها - وخلص من مقام الحب الى مقام آخر قصرت عنه عزائم الكثيرين وهو مقام المعرفة الذى ظفر فيه عن جدارة بلقب « سلطان العارفين » ومن أهم هذه الآثار : ترجمان الأشواق ، الذى يقول فى مقدمة شرحه :

ليت شعري هل دروا	أى قلب ملكوا ؟
وفؤادى لو درى	أى شعبي سلكوا
أتراهم سلكوا	أم تراهم هلكوا ؟
صار أرباب الهوى	فى الهوى وارتيكوا

وهذا تصوير لحيرة العاشق . والحب عند « ابن عربى » ليس كلاما يقال ، أو اشعارا تروى ، ولكنه أخلاق ومدارج ومعارج تسفك فى الصعود اليها الدماء وتطل الأرواح .

ولا يكمل مقام الحب حتى يضفى عليه الحب ثوبا قشيبا من الخير والتسامح ونكران الذات ، وحتى يؤمن بنظرية الشمول الواسعة فى الرحمة والمحبة ، فالخلق جميعا مظهر قدرة المحبوب الأعلى ، وهم على اختلاف مذاهبهم لا يخرجون عن دائرة إرادته ومشيتته فلماذا يكن لهم بغضا أو يحمل لهم ضغنا ؟

وابن عربى صاحب القصيدة المشهورة التى يقول فى آخرها :

أدين بدين الحب أتى توجهت

ركائسه فالحب دينى وإيمانى

وهو حريص على الرمزية فى حبه شأنه فى ذلك شأن غيره من الصوفية حرصا على المعانى والأسرار وصونا للقداسة والروحانيات التى أدركها ، ومن ذلك قوله فى ترجمان الأشواق :

سلام على سلمى ومن حل بالحمى
 وحل لمثل رقة أن يسلم
 وماذا عليها أن ترد تحية
 علينا ، ولكن لا احتكام على الدمى
 سروروا وظلام الليل أرخى سدوله
 فقالت لها : صبا غريبا متيما
 فأبدت ثيابها وأومض بارق
 فلم أدر من شفق الحنادس منهما
 وقالت : أما يكفيه أنى يقلبه
 يشاهدنى من كل وقت ، أما وما ؟
 والحب عذاب ، ويحلو التذلل فى سبيله ، ويعبر ابن الفارض
 عن ذلك المعنى بقوله :
 تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل
 فما اختاره مضى به وله عقل
 وعش سالما فالحب راحتته عنا
 وأوله سقم وآخره قتل
 أما ابن عربى فيقول :
 إذا حل ذكركم خاطرى
 فرشيت خدودى مكان القراب
 وأقعصدنى الذل فى بابكم
 قعود الأسارى لضرب الرقاب

ومن أجل هذا الحب الخطر الذى لا يهدأ قلب صاحبه ، ولا ينال في طريقه راحة ، لأنه حب محفوف بالمخاطر ، تعرض « ابن عربى » وغيره من الصوفية للسلب بالسنة حداد ، الى جانب ما كانوا يكابدونه في نفوسهم من عذاب الوجد ومشقة الصمد ، وبعد الشقة ، وطول المسافة ، وهم لذلك أصبحوا بين نارين : نار الحب ونار العذل ، ليس ذلك مما يبعث الرثاء لهم والعطف عليهم والرحمة بهم ؟

٢ - الانسان الكامل أو الحقيقة المحمدية :

أول من تحدث في هذا الأمر الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ ، فهو يقول : : أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم وجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم « (١) » .

وجاء ابن عربى بعد ذلك فجلى هذه الفكرة وأوضحها في مواضع متفرقة من كتبه ، وبين أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم هو الانسان الكامل ، وفتح الطريق لمن جاءوا بعده من الصوفية الى التعبير عنها تعبيرا يختلف من واحد الى آخر على قدر مفهومه وذوقه وأدراكه .

و « ابن عربى » ينظر الى النبى صلى الله عليه وسلم على أنه بشر ، ولكنه لم يكن كغيره من البشر ، فهو انسان كامل منذ مولده ونشأته ، وهو يتقلب من كمال الى كمال ، ولذلك اعطاه الله جوامع الكلم واختصه بها ، كما اعطاه معانى الأسماء وحقاتقها ، أما آدم فقد علمه الأسماء فقط .

وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم انسانا كاملا فهو قد جمع الكمال من أقطاره ، في كل قول وفعل وفي كل ما يأتى ويدع ، وهو

(١) التصوف في الشعر العربى ص ٣٤٦ .

القدوة الكاملة والأسوة الحسنة وهو أكمل نبي وأفضل مبعوث .
وقد اختصه الله بمقام الفردية . ولذلك أطلق عليه ابن عربى فى كتاب
فصوص الحكم هذا المنطوق « فص حكمة فردية فى كلمة محمدية » .
ويعبر عن حقيقة محمد الكاملة الذى يطلق عليه « الانسان
الكامل » فى كتابه شجرة الكون بقوله : « ان الله كون الأكوان اقتدارا
عليها لا افتقارا اليها ، وكمال حكمته فى التكوين وذلك لاطهار شرف
الماء والطين ، فانه أوجد ما أوجد ولم يقل فى شىء من ذلك : انى
جاعل فى الأرض خليفة ، وكان وجود آدمى ، فكانت حكمته فى
وجود آدمى لاطهار شرف النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه حكمة
الأجساد ولا استخراج كاف الكنزية : كنت كنزا مخفيا لا أعرف .
فكان المقصود فى الوجود معرفة موجدهم سبحانه ، وكان المخصوص
بأتم المعارف قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن معارف
الكل كانت تصديقا وإيمانا ، ومعرفة صلى الله عليه وسلم مشاهدة
وعيانا وتطور معرفته تعرفوا ، وبفضله عليهم اعترفوا ، فاستخرجوه
من لباب حبة « كن » كزرع أخرج شطأه فأزره بصحابته ،
فاستفلاظ بقرابته فاستوى على سوقه بصحة ذوقه وقوة توقيه
وشوقه » (١) .

و « ابن عربى » يؤكد أن النبى صلى الله عليه وسلم أكمل
موجود فى هذا النوع الانسانى ، ولذلك بدء به الأمر وختم ، وكان
نبيا وآدم بين الماء والطين ، وليس أدل على ذلك من انه حين سئل
صلى الله عليه وسلم : متى كنت نبيا يا رسول الله ؟ قال : وآدم بين
الروح والجسد ، كما روى عنه : كنت أول الأنبياء فى الخلق وآخرهم
فى البعث (٢) .

(١) شجرة الكون ص ٧ .

(٢) محمد الانسان الكامل - مقال للدكتور محمد مصطفى حلمى - منبر

أما كيف كان أولهم خلقا فقد أشار الى ذلك «ابن عربى» بقوله :
 « لما قبض الله آدم من قبضة تراب « كن » مسح على ظهره حتى
 يميز الخبيث من الطيب ، فاستخرج من ظهره من كان من أصحاب
 اليمين ومن كان من أصحاب الشمال ، ثم اعتصر من شجرة « كن »
 صفوة عنصرها ، ومخضها حتى بدت زبدتها ، ثم صفاها والقى
 عليها من نور هدايته ، حتى ظهر جوهرها ثم غمسها في بحر الرحمة ،
 ثم خلق منها نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم زين بنور الملأ
 الأعلى حتى أضاء وعلا ، ثم جعل ذلك النور أصلا لكل نور ، فهو
 أولهم في المسطور ، وآخرهم في الظهور » (١) .

ورسم « ابن عربى » الطريق لمن جاء بعده ليعبر عن هذه الحقيقة
 ومن هؤلاء « الجبلى » الذى ألف كتابا أسماه « الانسان الكامل »
 في معرفة الأواخر والأوائل . وفيه يقول : ثم انهم (أى الأنبياء)
 متفاوتون في الكمال منهم الكامل والأكمل ولم يتعين منهم بما تعين به
 صلى الله عليه وسلم في هذا الوجود من الكمال الذى قطع له بانفراده
 فيه ، شهدت له بذلك أخلاقه وأحواله وأفعاله وبعض أقواله ، فهو
 الانسان الكامل ، والباقيون من الأنبياء والأولياء الكمل صلوات الله
 عليهم ملحقون به لحوق الكامل بالأكمل ، ومنتسبون اليه انتساب
 الفاضل الى الأفضل ، ولكن مطلق لفظ الانسان الكامل حيث وقع
 في مؤلفاتى انما أريد به محمدا صلى الله عليه وسلم تأديبا لمقامه
 الأعلى ومحلته الأكمل الأسنى » (٢) .

ولم يترك « ابن عربى » فرصة للتعبير عن اجلاله لهذا النبي
 الكريم على ضوء هذه الحقيقة التى أدركها الا وجلى فيها ببيانته
 الصافي ومنطقة الوافى شعرا كان أو نثرا ، ومن ذلك ما نقرؤه له

(١) شجرة الكون ص ٦ .

(٢) الانسان الكامل - للجبلى ج ٢ ص ٤٤ .

مباهيا يوراثته لذلك الرسول الكامل ومبايعا له ومقارنا بينه وبين
موسى عليه السلام ، حيث أن موسى شرف بالكلام فقط ، أما محمد
فقد شرف بالاسراء والرؤية والمشاهدة •

ورثت الهاشمى اخا قريش	باوضح ما يكون من الدليل
ابايعه على الاسلام كشفا	وايماننا لالحق بالرعيـل
اقوم به وعنه اليه حتى	ابينه لابناء السـبيل
سرى في النور حتى كان ادنى	من القوسين في ظل ظليل
وشرف بالكلام اخوه موسى	على كذب وذلك بالمسـيل
واين العرش من واد بـقـاع	كما اين الكلم من الخـليل ؟

ابن عربى بين أنصاره وخصومه

عبر « ابن عربى » عن الأسرار التى لاحت له فى أثناء طريقه وعن المعارف التى كوشف بها أو أدركها بذوقه ، ومن ذلك تعبيره عن الحب الالهى وافاضته فيه ، وحديثه عن الحقيقة المحمدية بالصورة التى أوضحها وبين رأيه فيها ، كما عبر عن مقابلاته مع الأنبياء والسابقين والأولياء والمؤمنين ، وعبر عن مشاهداته لمختلف الروحانيات التى لا تقع تحت الحس ولا يمكن أن يدركها العقل ، وعبر عن أسرار المقامات والأحوال وما يصاحبها من تأثيرات نفسية وروحية ، وتحدث عن الدقائق الخفية التى تنتاب الصوفى فى نهاية طريقه فيرى أشياء تحار فيها الأفهام ويدق فيها الكلام الى غير ذلك .

و « ابن عربى » ترك ثروة سخية من غير شك فى ذلك ، وهذه الثروة عرضت أمام مجاهر النقد القديم والحديث ، وأدلى كل من القدماء والمحدثين برأيه فى قوله ، فمن معجب وناقم ومن مدافع ومهاجم .

ولكن الذى يحمد لابن عربى هو حيده فى التعبير - على حد قول الدكتور زكى مبارك - عنه فى ذلك : انه علم الناس كيف

يخوضون في أخطر الأحاديث ثم يسلمون^(١) ، فابن عربي في تعبيره عن هذه الأسرار كان متمكنا من نفسه ، لم تأخذه الدهشة ، ولم يغلب عليه « الشطح » في كل أحواله ، وكان أمينا في تعبيره فلم يصور شيئا خارجا على حدود الشريعة وكل كلمة قالها أن كتبها استطاع الصوفية أن يجدوا لها متاولا شرعيا من غير تكلف ينسبونها إليه .

وحدة الوجود :

ولكن برغم ذلك فقد وجد بعض الطاعنين له منافذ ينفذون منها الى الطعن عليه والنيل منه . ومن ذلك الفكرة التي أسندت إليه ، وهي فكرة « وحدة الوجود » فقد أشير إليه على أنه صاحب مذهب في الوجود وفي الوحدة ، وفي صدور الموجودات عن موجدتها ، ويصح أن نوضح المقصود بوحدة الوجود لدى الصوفية .

وحدة الوجود لدى الصوفية ناتجة عن طول تأملهم في آيات الله وآلائه التي أبدعها فبدا عليها أثر خلقه وإنشائه وإبداعه ، فنور الله وقدرته وجلاله وجماله يبدو على هذه الآيات كما يبدو تأثير المؤثر في الأثر ، وقد يقرب من هذا المعنى ما أرادته ذو النون المصري حين هتف يناجي ربه : - « الهى ما أصغيت الى صوت حيوان ولا الى حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا قعقة رعد الا وجدت لها شاهدة بوحدا نيتك دالة على أنه ليس كمثلك شيء . . ومثل هذا قول الدكتور زكى مبارك على لون من التجوز :

ومن أنت يا ربى ؟ أجبنى فأننى رايتك بين الحسن والزهر والماء

وهذا لا يقصد منه حلول أو اتحاد أو اندماج بين الخالق والمخلوق . ولكن يقصد منه ظهور قدرة الله وأثاره وعظمته في العالم بأسره .

(١) التصوف الاسلامي واثره في الادب والاخلاق ج ١ ص ٣٠٣ .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد
وهذا المعنى يعبر عنه استاذنا السيد محمد على منصور
الأقدمى - رضى الله عنه :

وأينما وليت لم أر غيره محيطا ، ولم يدركه عبد هوأه .
ومعنى يدركه أى يدرك هذه الحقيقة وهى شهود الاحاطة .
وعبد الهوى محال أن يدرك مظاهر قدرة الله تعالى المحيطة .

فوحدة الوجود فى رأى الصوفية غيرها فى رأى الغربيين
والمستشرقين ، لأن الصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكنهم يرون
أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وإنما الوجود الحق لله
تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو(١) . أما غيرهم فيرون أن
الروح والمادة شيء واحد .

وحقيقة هذه الحقيقة عند الصوفية قائمة على المعرفة
الحقيقية لله ، فقد قال معروف الكوخى : « اذا انفتحت عين
بصيرة العارف نامت عين بصره فلا يرى الا الله » وهذا ما يعبر
عنه الشيخ حسن رضوان فى كتابه روض القلوب المستطاب :

وكل ما سواه نجم أفل بل فى شهود العارفين باطل
ويعلق على ذلك بقوله : - « أن كل ما سوى الله تعالى من
الأعيان الظاهرة والماهيات الممكنة علوية أو سفلية باطل فى شهود
العارفين من حيث ذاته ، فلا حقيقة له أزلا وأبدا ، وإنما الموجود
حقيقة كذلك هو ذات الحق تعالى ، وليس لتلك الأعيان والماهيات
الظاهرة وجود حقيقى ذاتى لها » .

ويستشهد الشيخ حسن رضوان على بيان هذه الحقيقة
واجلائها بقول الجبلى :

(١) أعلام التصوف الإسلامى لطله عبد الباقى سرور ج ١ ص ٨٥ .

فمثل رضى الله عنه العالم بالثلج ، والحق تعالى - وله المثل الأعلى - بالماء ، وليس الا الماء فى الحقيقة والثلجية طارئة عليه .

ان كنت مرتادا لتبيل كمال
عدم على التفصيل والاجمال
لولا في محو وفي اضمحلال
فجوده لولا عين محال
شيئا سوى المتكبر المتعالى
في الحال والماضي والاستقبال

ويفصل ابن عجيبة هذا الأمر تفصيلا عجيبا حيث يقول :

« قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه ولم أره حديثا ،

(۲) شرح الرندی علی حکم ابن عطاء اللہ ج ۱ ص ۱۹ .

وانما هو من قول بعض العارفين : فأهل السير من المريدين يشهدون الكون ثم يشهدون المكون عنده وبأثره ، فيمتحق الكون من نظرهم اليه ، وهذا حال المستشرف ، وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل وجود الخلق ، بمعنى أنهم لا يرون الخلق أصلا ، اذ لا ثبوت له عندهم ، لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة قانون عن الحكمة غرقى في بحار الأنوار ، مطموس عليهم الآثار ، وفي هذا المقام قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله ، وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان انما يشهدون الكون ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده ، وانما يستدلون على وجوده بوجود الكون ، وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين ، فقد أعوزهم وجود الأنوار وحجبت عنهم شمس المعارف بسحب الآثار ، ثم يستشهد ابن عجيبة بقول القائل :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد

الا على أكمله لا يبصر القمر

لكن بطنت بما اظهرت محتجبا

وكيف يعرف من بالعزة استترا ؟ (١)

وقد أكثر الصوفية في التعبير عن هذه الحقيقة حتى أوهم هذا الاكثار فكرة الخلط بين القديم والحديث ، ولكن حاشا للصوفية — وهم أعرف الناس بالله — أن يقصدوا ذلك ، وهم يستأنسون بقول على كرم الله وجهه « الحق تعالى ليس من شيء ولا في شيء ولا فوق شيء ولا تحت شيء ، اذ لو كان من شيء لكان مخلوقا ولو كان فوق شيء لكان محمولا ، ولو كان في شيء لكان محصورا ، ولو كان تحت شيء لكان مقهورا » .

وكل ما يؤكد الصوفية هو هذا المعنى المستفاد من الاثر : كان

(١) ايقاظ الهمم ص ٥١ .

الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، فليس الكون في نظرهم كما يعتقد الغربيون شيئا واحدا لا فرق بين قديم وحديث على نحو ما فهم المستشرق « نيكلسون » في كتابه الصوفية والاسلام ، ودعواه بأن الصوفية انتهوا الى أن العالم جميعه وفيه الانسان واحد مع الله بالضرورة (١) .

وقد سبقت الإشارة الى كثير من ماثورات الصوفية التي تؤكد فهمهم حول هذه الحقيقة بما لا يتنافى مع قدرة الله وديموميته واحاطته وفرديته . ويؤكد الدكتور « عبد الوهاب عزام » ضرورة مراعاة الفرق بين فهم الصوفية وغيرهم لحقيقة وحدة الوجود بقوله : « ينبغى أن يفرق بين وحدة الوجود التي رآها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود في رأى العطار وغيره من الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة شيء واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكن يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وإنما الوجود لله تعالى فليس هو العالم ولا العالم هو » (٢) .

وعلى هذا الفهم يمكن أن يفسر كلام « ابن عربى » الذى يفهم منه فكرة وحدة الوجود . وهذا الكلام هو الذى أشار اليه الدكتور أبو العلا عفيفى في دائرة المعارف الاسلامية بقوله : ويتلخص مذهبه (وحدة الوجود) في عبارته القصيرة الواردة في الفتوحات ج ٢ ص ٦٠٤ وهى « سبحانه من خلق الأشياء وهو عينها » وفي البيتين الآتيين الواردين في الفصوص إشارة الى هذا المعنى :

يا خالق الأشياء فى نفسه انت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهى كونه فيك فانت الضيق الواسع

(١) التصوف عند المستشرقين ص ٢٩ .

(٢) اعلام التصوف الاسلامى ج ١ ص ٨٥ .

فابن عربى فيما ورد على لسانه من عبارات توهم فى ظاهرها فكرة الوحدة بين الخالق والمخلوق لا ينبغى أن تفهم الا على أساس فهم الصوفية من هذه الوحدة ، وهو الذى أشير اليه فيما سبق • وقصدوا منه أنه لا موجود على الحقيقة الا الله تعالى ، وليس معنى ذلك أن الله هو العالم أو العالم هو الله •

سلامة عقيدة ابن عربى :

وليس فى عقيدة ابن عربى تغيير لعقيدة التوحيد الاسلامى ، وليس من السهل الحكم على رجل كابن عربى بأنه يغير عقيدة التوحيد الاسلامى ، وهى لا اله الا الله ، وهو الذى كان يعظم الشريعة ايماء تعظيم ولكنه يقرر : - « أن الحق ثابت فى الوهيته قبل اثبات المثبت ، ومن كان ثابتا لا يحتاج الى اثباتك ، اذ ما ثم من تثبت الوهيته من الخلق حتى ينفى ، وانما تعبد المؤمن بذلك على سبيل القلوة ليؤجره الله على ذلك » وهذا ذوق عال فى الفهم •

وأما قوله : « لا موجود الا الله » فمعناه : أنه لا موجود قائم بنفسه الا هو تعالى ، وما سواه قائم بغيره ، كما أشار اليه حديث : الا كل شىء ما خلا الله باطل ، ومن كانت حقيقته كذلك فهو الى العدم أقرب ، اذ هو وجود مسبوق بعدم ، وفى حال وجوده متردد بين وجود وعدم ، لا تخلص لأحد الطرفين ، فان صح أن الشيخ ابن عربى قال : لا موجود الا الله فانما قال ذلك عندما تلاشت عنده الكائنات حين شهوده الحق تعالى بقلبه ، كما قال أبو القاسم الجنيد : من شهد الحق لم يرد الخلق •

وأما قوله مما يفهم منه أنه جعل الحق والخلق شيئا واحدا
مثل :

فيحمدنى وأحمده ويعبدنى وأعبده

فان معنى يحمدنى يشكرنى اذا أطعته كما فى قوله تعالى : «أذكرونى

أذكركم « ويعبدنى معناها يطيعنى ، باجابته دعائى ، كما قال تعالى :
« لا تعبدوا الشيطان » أى لا تطيعوه .

وإذا كان قد ورد فى الفتوحات العبارة التى وردت سابقا مما
يفهم منها الوحدة بين الحق والخلق ، وهى : سبحان من خلق الأشياء
وهو عينها ، فقد ورد فى كثير من المواضع ما يدل صراحة على أن
العالم ما هو عين الحق تعالى ولا الحق عين العالم ، ويستدل « ابن
عربى » على ذلك بدليل عقلى ، وهو أنه لو كان عين الحق لما صح
أن يكون الله سبحانه بديعا (١) .

وقد مر بنا فى المحادثة التى تمت بينه وبين هارون النبى عليه
الصلاة والسلام ما يشير الى حقيقة رأيه وفى أنه لم يقصد هذا
الاندماج بين الحق والخلق .

ولقد أفرد الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر مبحثا خاصا
ينفى فيه عن الشيخ الأكبر ما ألصقه به خصومه من دعوى الحلول
والاتحاد مستشهدا على براءته بكلامه هو فى الفتوحات وغيرها .

وكل ما ورد عنه من ألفاظ موهمة وجدت لدى ذاتقى كلامه
وفاهمى اشاراته متأولا صحيحا ، ومن ذلك ما يرويه المقرئ فى
نفع الطيب عن محبى الدين بن عربى : « قال رحمه الله تعالى قال
لى بعض اخوانى لما سمع هذا البيت :

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

كيف تقول : انه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟
فقلت له مرتجلا :

يا من يرانى مجرما ولا أراه

كم ذا أراه مفعما ولا يرانى لائذا

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٥ بتصرف .

ويعقب المقرئ على ذلك قائلا : « من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ - رحمه الله تعالى - مؤول وأنه لا يقصد ظاهرة ، وإنما له محامل تليق به ، وكفاك شاهدا هذه الجزئية الواحدة فاحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد ، وللناس في هذا المعنى كلام كثير ، والتسليم أحسن والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم » (١) .

ومما يحكيه المقرئ عن اليافعي قوله دفاعا عن ابن عربي : « وما ينسب الى المشايخ له محامل : الأول أنه لم تصح نسبته اليهم ، الثاني بعد الصحة يلتبس له تأويل موافق ، فإن لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمه ، وإنما يعلمه العارفون ، الثالث أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة ، والسكران سكرًا مباحًا غير مؤاخذ ولا مكلف » (٢) .

هذا وابن عربي دائما يؤكد أن تحصيل المعرفة لا يتم الا عن طريق التقوى وسلامة العقيدة وقوة الايمان وحسن العمل .

الحملات التي وجهت ضده :

وقد تعرض « ابن عربي » لحملة قاسية في حياته وبعد مماته ، بناء على ما ورد في كتبه المنظومة والمنثورة من عبارات ، وقف عندها البعض ولم يستطيعوا استساغتها ، وقد مر بنا كيف أنه اتهم في اثناء زيارته لمصر بالزندقة ، وقبض عليه ، وأوشك أن يلقي حتفه لولا ان قيض الله له من شفع له وتأول كلامه .

وقد عرضت كتب التراجم لكثير من الأسباب التي تذرع بها خصوم « ابن عربي » ومن بينها القول بوحدة الوجود التي أشرت اليها .

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٨ .

كما عرضت أسماء خصومه وأسماء انصاره .
وقد ذكرت دائرة المعارف الاسلامية بعض الأسماء من هؤلاء
وهؤلاء ، فذكرت من المعارضين : ابن الخياط والحافظ الذهبي
وابن تيمية وابن اياس والتفتازاني ، وعلى القاري ، والامام
جمال الدين بن محمد بن نور الدين .

وذكرت من المناصرين : مجد الدين الفيروزيادي صاحب
القاموس ، وسراج الدين المخزومي ، وكمال الدين الزملكاني ،
وقطب الدين الحموي ، وصلاح الدين الصفدي ، وشهاب الدين
عمر السهروردي ومؤيد الدين الخجندی ، وكمال الدين الكاش ،
وفخر الدين الرازي ، ومحمد المغربي أستاذ الجلال السيوطي ،
وبدر الدين بن جماعة ، وسراج الدين البلقيني ، وتقى الدين
السبكي ، والجلال السيوطي ، وابن كمال باشا ، وعبد الرازق
القاشاني وغيرهم .

وهي قائمة جديدة ببيان منزلة هذا الرجل الذي أجبر هؤلاء
جميعا - وغيرهم - على ان يكتبوا عنه مهاجمين أو مدافعين .
بعض الأسباب التي أدت الى الإنكار عليه :

أما الأسباب التي تذرع بها خصومه ، فمن بينها القول بوحدة
الوجود ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

ومن بينها قوله « بايمان فرعون » وهذا القول غير ثابت وروده
عن « ابن عربي » فقد تحقق كثير من العلماء بأنه قد دس عليه كثير
من الآراء في كتبه . ذكر ذلك الشعرائي في اليواقيت والجواهر ،
وقرر بأنه ذكر في الباب الثاني والستين من الفتوحات بأن فرعون
من أهل النار الذين لا يخرجون منها أبد الأبدین ، والفتوحات من
أواخر مؤلفاته .

على أنه اذا ثبت ذلك في وروده عنه فانه لم ينفرد وحده بهذا

الرأى ، فقد ذهب بعض السلف الى قبول ايمانه لما حكى عنه الله أنه قال : آمنتم أنه لا اله الا الذى آمنتم به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين • وكان هذا آخر عهده بالدنيا ، وقال ابو بكر الباقلانى قبول ايمانه هو الأقوى من حيث الاستدلال ، ولم يرد لنا نص صريح أنه مات على كفره ودليل جمهور السلف والخلف على أنه آمن عند اليأس ، وايمان اهل اليأس لا يقبل (١) •

وابن عربى فى اجتهاده - على نص فرض ثبوت ذلك عنه - لا يؤدى الى هذه الضجة التى أثيرت حوله وأخرجه أصحابها من دائرة اهل الايمان الى دائرة اهل الكفر ، ولعمري للفتوى بايمان فرعون ايسر من الفتوى بكفر رجل من اهل اليقين والايمان •

وقد اورد صاحب نفح الطيب أن بعض العلماء تأول قول الشيخ محبى الدين بايمان فرعون أن مراده بفرعون : النفس ، بدليل قوله :

قلبى قطبى ، وقالبى أجفانى

سرى خضرى ، وعينه عرفانى

روحى هارون ، وكليمى موسى

نفسى فرعون ، والهوى هامانى (٢)

وعلى ذلك فيحمل كلامه على محمل الاشارات الصوفية التى يصدق فهمها على كثير من العقول •

ومن الأسباب التى هوجم من أجلها ما كان يحدث به من لقاء بينه وبين ارواح بعض الأنبياء والأولياء السابقين على نحو ما سبقت الإشارة اليه ، وتلك حالة خاصة لبعض الذين اصطفاهم الله من عباده ، وقد ورد فى بعض الآثار أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف

(١) البواقيت والجواهر ص ٦٦ •

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١١٦ •

منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . وليس هناك تعارف أعظم من الاجتماع على معرفة الله ، فتلك هى الألفة التى تربط بين الأرواح العارفة برباط المعرفة المتين ، وليس ما يمنع لقاء هذه الأرواح التى لا يقف أمامها حجاب ولا يحول دون لقائها حس .

كما أن من الأسباب التى أدت الى ذلك ما كان يفيض به من تعبيرات الشوق والهيام فى قصائد غزلية يظنها السامع أو القارئ موجّهة الى انسان ، ولكنها فى الحقيقة موجّهة الى معان روحية عميقة ، واستعمل فيها الألفاظ الحسية جريا على طريقة الصوفية فى رموزهم وإشاراتهم . وهو ليس وحده الذى استعمل الرموز فى التعبير عن روحانياته ، ولكن كثيرا منهم لجأ الى ذلك لسببين فى رأى الأستاذ الدكتور عبد الحكيم حسان : أحدهما : أن كثيرا من نزعاتهم يخالف ظاهر الشريعة فلا يمكن الإفصاح عنها خوفا من سلطان الفقهاء الذين كانوا يتبعون الصوفية بالنكير والتشهير ، ويحاولون الزج بهم فى محاكمات تنتهى فى بعض الأحيان بقتلهم ، والآخر أن اللغة العادية تقصر عن أداء كل ما عندهم من معان ، لأنها تقوم على الذوق أكثر مما تقوم على المنطق ، ويعبرون عن ذلك بقولهم :

وان قميصا خيط من نسج تسعة

وعشرين حرفا عن معاليك يقصر

فلم يجد الصوفية - اذن - وسيلة يمكن التعبير بها عن معانيهم وأذواقهم الا الرمز الذى لم يجر على قاعدة واحدة سار عليها الصوفية ، وانما اختلف باختلاف الموضوعات التى تناولوها (١) .

يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى : « ومن هنا ذهب فريق من المتعصبين على التصوف والصوفية تعصبا قوامه سوء النية

(١) التصوف فى الشعر العربى ص ٨٧ .

أو نقص الفطرة أو العجز عن فهم الحقائق الدقيقة ، والمعانى الرقيقة الى الارجاف بالصوقية والتشنيع عليهم ، والغض من القيم الروحية والمعانى الخفية التى تنطوى عليها الألفاظ والعبارات الغزلية والخمرية ، وأما أن هذه الألفاظ رموز وإشارات فذلك ما لا تفهمه عقول المتعصبين ٠٠ ومن هذا القبيل ما وقع فى حق محبى الدين ابن عربى ، إذ ثار به وشنع عليه كل من العامة ورجال الدين عندما وقفوا على ما نظمه من شعر فى حبه الالهى ٠٠» (١)

ومن الأسباب التى أدت الى مهاجمته ما كان يحدث به تجليات وإشراقات كانت تحدث له ، لا يجد لها الناس علة عقلية ممكنة ومن ذلك ما حدث به فى أثناء وجوده بمصر ٠ وليس بغريب أن تنثير أمثال هذه الإشراقات والتجليات ثائرة الذين لم يشاهدوا ما شاهد « ابن عربى » وأمثاله ممن ساروا على هذا الدرب الشاق المضىء ٠

ولقد كان الشيخ الأكبر يتوقع ذلك فقد قال : « ولقد وقع لنا وللمعارفين أمور ومحن بواسطة اظهارنا المعارف والأسرار ، وشهدوا فينا بالزندقة وآذونا أشد الأذى ، وصرنا كرسول كذبه قومه وما آمن معه الا قليل » (٢) ٠

والشعرانى أحد الذين وقفوا فى صف « ابن عربى » ووصفه بأنه من أكابر أهل العطايا الذين كشف لهم الحق عن جمال وجهه الباقى فتلاآت سبحاته بالأنوار الساطعة الى يوم التلاق ، وحكم على من تعرض لتخطئته أو تكفيره بالجهل والحرمان وعدم الفهم وضعف الايمان (٣) ٠

(١) الحب الالهى فى الصرف الاسلامى الدكتور محمد مصطفى حلمى

ص ١٠٠ ٠

(٢) اليواقيت والجواهر ص ٣١ ٠

(٣) المرجع السابق ص ١٥ ٠

والخوارق التي تظهر للأولياء إنما هي إكرامات الله لهم أفاضها عليهم تقوية لعزائهم ، وحثا لهم على الجهاد وتأسيسا لهم في مضيتهم نحو غايتهم ، وما يحدث لهم من إشراق على بعض الأجسام المادية إنما هو أثر من آثار تجلى الجمال الالهي الذي يحيل الظلام نورا والحس معنى والمادة روحا ، وما ذلك الا صدق لقول الحكيم العزيز « وأن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » •

ولقد كان لنا أخ ادخره الله عنده ، حدثنا مرة أنه مرت عليه أوقات كان يرى فيها كل شيء أمامه نورا خالصا لا حدود له ، حتى الأجسام والحواجز والأشجار كانت في نظره كوائن نورانية خالصة ، لذلك كان يتردد في أن يطلق عليها أسماءها العرفية لأنها لم تعد تنطبق عليها كما يراها في هذه الآونة • ولقد قضى هذا الأخ الى جوار ربه راضيا مرضيا •

ولو تأملنا معنى قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » لرأينا مصداق ذلك فسيحان من إشراق الوجود بنوره وعم العالم ضياؤه ، وقد ابتهل النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة •

ولعل الراقى يقصد هذه المعانى بتعبيره : « فان الكون كله جوهر واحد هو النور ، حتى الجبل هو نورى صخرى ، وحتى البحر هو نور مائى ، وحتى الحديد والذهب والتراب كل ذلك نور صرفته القدرة الالهية تصريفها المعجز ، فكان على ما نرى ، ظاهر مخيل يلائم نقصنا وعجزنا ، وحقيقة قادرة على غير ما نرى » (١) ••

على أنه لا يمكن أن نبرىء بعض خصوم «ابن عربى» من شهوة الحقد التى يبتلى الله بها بعض الناس فينكرون على الناجحين أحوالهم ، ويترصدون لهم الطرق ، ويبتون أمامهم الفتن ويزرعون

(١) وحى القلم ج ٢ ص ٢١٥ •

الشوك ، ويدسون عليهم ما هم منه براء • محاولين بذلك الحط من قدرهم والاضعاف من شأنهم ، وتلك حالة عامة تكاد توجد في كل عصر ومكان •

قال المناوي : « وفريق قصد بالانكار عليه وعلى أتباعه الانتصار لحظ نفسه لكونه وجد قرينه (ومعاصره) يعتقده وينتصر له ، فحملته حمية الجاهلية على معاكسته ، فبالغ في خذلانه وخذلان أتباعه ومعتقديه ، وقد شوهد عود الخذلان والخمول على هذا الفريق وعدم الانتفاع بعلومهم وتصانيفهم على حسنها » (١) •

ولو تتبعنا سير القادة والعظماء والمصلحين في كل زمان ومكان لوجدنا صحة انطباق هذه القاعدة التي لاتكاد تتخلف ، ويستشهد الشعرائي في طبقاته وفي غيرها من الكتب على صدق ذلك ببعض الحوادث التي وقعت للمصالحين والناهبين ، ويضرب المثل بما لاقاه الأئمة المجتهدون من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل • وبما لاقاه ذو النون والسلمي وابن خلكان والبسطامي والتستري والجنيد والشاذلي والعز بن عبد السلام وغيرهم •

وليس بغريب ، فهذه المحن هي التي تصهر الرجال وتصنعهم ، وقد صدق جل وعز ، إذ يقول « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ » وجاء في التوراة : ما كان رجل حلیم في قوم قط الا بغوا عليه وحسدوه (٢) •

وجوع بعض المنكرين عليه عن انكارهم :

ولو استنطقنا كتب « ابن عربی » الزاخرة لشهدت له بكل فضل ، وأثنت عليه الثناء الأوفى ، وآثاره شاهدة بفضله ناطقة

(١) شلرات الذهب ج ٥ ص ١٩١ •

(٢) راجع اليواقيت والجواهر ص ١٦ ما بعدها •

بذكره الى جانب ما فاضت به السنة المعاصرين له من المنصفين
ومن ساروا على نهجه وانتفعوا بعلومه وأدبه .

وقد شهد له كثير من هؤلاء بالتقدم والمعرفة التي كان من حقه
علينا أن نثبت طرفا منها ، كما رجع من الحط عليه بعض من أنكروا
عليه أولا .

ومن هؤلاء « الحافظ الذهبي » وهو أبو عبد الله شمس الدين
الذهبي الحافظ ، محدث وقته ولد سنة ٦٧٣ هـ وتوفي سنة ٧٤٨ هـ
بدمشق . فقد شهد « لابن عربي » وقال في حقه : « ان له توسعا
في الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيقا في التصوف وتواليف
جملة في العرفان ، ولولا شطحة في كلامه وشعره لم يكن به بأس ،
ولعل ذلك وقع منه في حال سكره وغيبته فيرجى له الخير » (١)
وقال أيضا : « ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلا » (٢) .

ومنهم العز بن عبد السلام شيخ الاسلام والمسلمين ، وأحد
أعلام الأئمة المشهورين ولد سنة ٥٧٨ هـ وكان حسن المحاضرة لطيف
الدرس وتوفي سنة ٦٦٠ هـ ، وكان ينكر على ابن عربي في أول أمره
فلما عرف مقامه شهد له ورجع عن انكاره ، وقرر : أن محيي الدين
قطب زمانه (٣) .

شهادة المحققين له :

ومن المعجبين بابن عربي الفيروزآبادي صاحب القاموس
المحيط ، وهو شيخ الاسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد
ابن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي ولد سنة ٧٢٩ هـ

(١) فتح الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٣ .

وتوفي سنة ٨١٧ هـ ، وكان عظيم الاعتقاد في « ابن عربي » يحمل كلامه على خير محامله ، وطرز شرحه للبخاري بكثير من كلامه ، وألف كتابا للمرد على « ابن الخياط » أحد خصوم ابن عربي سماه : الاغتباط بمعالجة ابن الخياط ، وقال عن ابن عربي « أنه شيخ الطريقة حالا وعلماء ، وإمام الحقيقة حدا ورسمًا ومحیی رسوم المعارف فعلا واسما :

إذا تغلغل فكر المرء في طرف من بحره غرقت فيه خواطره
وهو عباب لا تكدره الدلاء ، وسحاب لا تتقاصر عنه الأنواء ، وكانت دعواته تخرق السبع الطباقي ، وتفترق بركاته فتملا الآفاق (١) .

وتحركت همة « الفيروزابادي » في الدفاع عن « ابن عربي » حين وجد الجدل قد ثار حوله بسبب « جمال الدين بن الخياط » اليمني ، وكان قد كتب مسائل في درج ، وأرسلها الى العلماء ببلا ، الاسلام ، وقال : هذه عقائد الشيخ محيي الدين بن العربي ، ذكر فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لاجماع المسلمين ، مما أثار ثائرة بعض العلماء الذين بادروا من غير تثبت الى الطعن في ابن عربي (٢) . فدعا ذلك المنصفين ومنهم « الفيروزابادي » الى التصدي لبيان الحق واظهار وجه الصواب ، وتبرئة الشيخ الأكبر مما الصقه به هؤلاء .

وممن ذكر « ابن عربي » بالخير الامام العالم بالله تعالى « صفي الدين حسين بن جمال الدين الأزدي الأنصاري » في رسالته الفريدة المحتوية على من رأى من سادات عصره قال : « ورايت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيي الدين بن العربي ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية ،

(١) المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٢) البواقيت والجواهر ص ٩ .

وما وقر له من العلوم الروحية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة ،
وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا ، لا يكثرث بالوجود مقبلا
كان أو معرضا « (١) » .

كما ذكره بقوله « هو الشيخ الامام المحقق رأس أجلاء العارفين
والحققين » (٢) .

وقال عنه الشيخ « محيى الدين محمد بن مسدى » فى معجمه
البديع المحتوى على ثلاثة مجلدات أنه : « خاض بحار تلك العبارات ،
وتحقق بمحيى تلك الاشارات ، وتصانيفه تشهد له عند أولى البصر
بالتقدم والاقدام ومواقف النهايات فى مزالق الاقدام ، ولهذا ما ارتبت
فى امره » (٣) .

ويدفع عنه « ابن العماد » بقوله : « وقع له فى تضاعيف كتبه
كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها ، وكانت سببا لاعراض كثيرين ممن
لم يحسنوا الظن به ، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة
المحققين والعلماء العاملين والأئمة الوارثين : ان ما أوهمته تلك
الظواهر ليس هو المراد ، وانما المراد أمور اصطلح عليها متأخرو
أهل الطريق غيرة عليها حتى لا يدعيها الكذابون ، فاصطلحوا على
الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهمة خلاف المراد غير مبالين بذلك لأنه
لا يمكن التعبير عنها بغيرها » .

ويروى الشيخ « برهان الدين البقاعى » فى معجمه : « حكى لى
الشيخ تقى الدين أبو بكر بن أبى الوفا المقدسى الشافعى قال :
« وهو (أى ابن عربى) أمثل الصوفية فى زماننا » (٤) .

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١١٣ .

(٢) دائرة معارف البستانى ج ١ مادة ابن عربى .

(٣) نفع الطيب ج ٧ ص ١٥٦ .

(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٦٠ وما بعدها .

ويعمل الشيخ « زين الدين الخافى » عبارات « ابن عربى » الموهمة بقوله : « ان العبد اذا تخلق ثم تحقق ثم جذب اضمحلت ذاته وذهبت صفاته وتخلص من السوى ، فعند ذلك تلوح له بروق الحق بالحق فيطلع على كل شىء ويرى الله عند كل شىء فيغيب بالله عن كل شىء » (١) .

وقال المناوى « والذى اعتقده ولا يصح غيره أن الامام « ابن عربى » ولى صالح وعالم ناصح ، وانما فوق اليه سهام الملامة من لم يفهم كلامه . على أنه دست فى كتبه مقالات قدره يجلب عنها » .
وفى رسالة « لابن كمال باشا » وجهها فى توضيح مناقب « ابن عربى » جاء فيها : « أنه مجتهد كامل ومرشد فاضل ، له مناقب عجيبة وخوارق غريبة وتلامذة كثيرة مقبولة عند العلماء والفضلاء ، فمن أنكره فقد أخطأ ، وان أصر فى انكاره فقد ضل يجب على السلطان تأديبه » .

وتذكر دائرة معارف البستانى عنه « وقد أجمع المحققون على جلالته فى سائر العلوم كما تشهد بذلك كتبه ، وما أنكر عليه من أنكر الا لدقة كلامه لا غير ، فأنكروا على من يطالع من غير سلوك طريق الرياضة خوفا من حصول شبهة فى معتقده » (٢) .

وسئل عن « ابن عربى » الشيخ « قطب الدين الحموى » حين رجع من الشام ، فقل له : كيف وجدت الشيخ محيى الدين ؟ فقال : وجدته فى العلم والزهّد والمعارف بحرا زاخرا لا ساحل له ، قال وأنشدنى الشيخ بلفظه من جملة أبيات :

تركنا البحار الزاخرات وراءنا

فمن أين يدري الناس أين توجهنا (٣)

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ وما بعدها .

(٢) دائرة معارف البستانى ج ١ مادة ابن عربى .

(٣) اليواقيت والجواهر ص ١٠ .

وقال عنه صلاح الدين الصفدى : « من أراد أن ينظر الى كلام
أهل العلوم اللدنية فليُنظر في كتب الشيخ محيى الدين بن العربى
رحمه الله » (١) .

ونذكر الشعراى فى كتابه اليواقيت والجواهر وفى غيره من الكتب
عددا كبيرا من المثنيين على « ابن عربى » وكلهم من الأعلام الأفاضل
مثل قطب الدين الشيرازى ، ومؤيد الدين الجخندى ، وفخر الدين
الرازى ، ومحيى الدين النووى ، والامام ابن سعد اليافعى ، ومحمد
المغربى الشاذلى شيخ جلال الدين السيوطى ، وسراج الدين
المخزومى ، وبدر الدين بن جماعة ، كما ذكر جملة من أقوالهم التى
يمجدون فيها الشيخ الأكبر وينسبونه الى الفضل والكمال .

ومن الشيوخ من ألف كتباً فى الدفاع عن ابن عربى ورد المعارضين
عنه كما حدث من الفيروزىادى والشعراى ، وكما حدث من
جلال الدين السيوطى الذى ألف كتاباً سماه تنبيه الغبى فى تبرئة
ابن عربى . رداً على كتاب : تنبيه الغبى الى تفكير ابن عربى ، الذى
ألفه برهان الدين البقاعى ، وكما حدث من سراج الدين المخزومى
الذى ألف كتاباً سماه : كشف الغطاء عن أسرار محيى الدين .

وجملة القول : فان « الذين اكبروا ابن عربى اكباراً خالصاً
وحسن اعتقادهم فيه بحيث لم تشبهه شائبة من تشكيك فيه أو تكفير
له ، فكثيرون لا يتسع المقام لاحتصائهم واستقصاء آرائهم » (٢) .
وحسبنا ما ذكرنا منهم على سبيل المثال لا على سبيل الاستقصاء .

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٠ .

(٢) ابن الفارض سلطان العاشمين ص ٨٧ .

آثار ابن عربي

(١) أولاده :

ذكر المقرئ في نفح الطيب ان « ابن عربي » ولد له غلام في « ملطية » في رمضان سنة ٦١٨ هـ في أثناء رحلته اليها وقد أسماه « سعد الدين » .

وقد شب هذا الغلام على نهج أبيه ، فسمع الحديث وقام بالتدريس ونبغ في الأدب وقال الشعر الجيد الذي جمع في ديوان وقد توفي سنة ٦٥٦ هـ .

وله ابن آخر اسمه عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عربي توفي بالصالحية سنة ٦٦٧ هـ ، ودفن هذان الأخوان بجوار أبيهما في سفح جبل قاسيون بقرية القاضي ابن الزكي الذي كان يجل الشيخ أجلا عظيما وأنزله داره وأجرى له عطاء يوميا قدره ثلاثون درهما وزوجه ابنته فلما توفي دفن بمدافن أسرته .

كما أعقب « ابن عربي » بنتا أسماها « زينب » وقد ذكر أبوها عنها أنها منذ طفولتها الأولى كانت تصاحبها آيات خارقة .

(ب) تلاميذه وأخوانه :

للشيخ الأكبر تلاميذ وأخوان كثيرون . يضيق المقام عن الحديث عنهم بالتفصيل ، ولكننا نشير الى بعضهم .

فمن تلاميذه الذين تحدث عنهم في كتبه : بدر الدين الحبشى . وكان ملازما له ، وأثيرا لديه . وقد أشار في كتابه الفتوحات المكية اليه بقوله :

وأما رفيقى فضياء خالص ونور صرف حبشى اسمه عبد الله بدر لا يلحقه خسف يعرف الحق لأمله فيؤديه ويوقفه عليهم ولا يعديه قد نال درجة التمييز وتخلص عند السبك كالذهب الابريز ، كلامه حق ووعدده صدق . وقد صحب الشيخ مدة ٣٣ سنة . وتوفى في ملطية « مقدمة الفتوحات ط الهيئة المصرية العامة للكتاب » .

ويذكر بعض المؤلفين ان من تلاميذه ابن الفارض . واتجه النابلسى شارح ديوان عمر بن الفارض هذا الاتجاه عند شرحه لبعض قصائد الديوان (١) .

ومن تلاميذه وأبرزهم « صدر الدين القونوى » واسمه محمّد ابن اسحاق الذى كان له فضل كبير في المحافظة على مؤلفاته ونشر تعاليمه وعلومه .

ومن أصدقائه الكثيرين الذين كان يجلبهم الشيخ « أبو محمّد ابن عبد العزيز التونسى » الذى استضاف ابن عربى في أثناء زيارته لتونس .

ومنهم « مكين الدين الأصفهاني » امام مقام ابراهيم بمكة .

ومنهم « فخر الدين الرازى » الذى كان يكتابه كثيرا .

(١) راجع ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٩٣ .

ومنهم « أبو العباس الحرار » صاحب المناقب المشهورة .
ومنهم « أبو عبد الله زكريا بن محمود القاضي المعروف
بالقزويني » صاحب عجائب المخلوقات وغيره من الكتب . وغير
هؤلاء كثير .

(ج) مؤلفاته :

الشيخ الأكبر ترك عددا لا يحصى من المؤلفات ، ويبدو أن كثيرا
من هذه المؤلفات قد فقد ، فقد حدث الفيروزآبادي : « وقفت
على أجازة كتبها للملك المعظم فقال في آخرها ، وأجزته أن يروى
عني مصنفاتي ومن جملتها كذا وكذا ، حتى عد نيفا وأربعمئة
مصنف » (١) .

وقد ذكرت مصادر مختلفة أن ابن عربي له ما يقرب من ثلاثمئة
مصنف ، فدائرة المعارف الإسلامية تقول « ويبلغ ما بقي من
تأليفه مائة وخمسين كتابا ، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف
ما ألفه ابن عربي في الواقع » (٢) .

وتقول دائرة المعارف البريطانية « أنه كتب ٢٨٩ كتابا نعرف
منها ١٥٠ كتابا ذكرها بروكلمان في كتابه الأدب العربي » (٣) .

وقد بذل « بروكلمان » المستشرق الألماني مجهودا مشكورا في
حصص ما بقي من كتب ابن عربي ، وضمنها موسوعته الضخمة التي
تضم أسماء الكتب والمؤلفين العرب ، وأفرد لهذه الكتب ما يقرب من
ثمانين صفحات تحمل الأولى منها رقم ٥٧١ .

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٣٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ مادة ابن عربي .

(٣) دائرة المعارف البريطانية مجلد ١٢ ص ٣٣ .

وهذا ثبت بأسماء هذه الكتب التي ذكرها بروكلمان (١) .

- ١ - أجازة للملك المظفر بهاء الدين غازي الملك العادل في جميع ما رواه عن أسياخه وما له من نثر ونظم ، وهو في دمشق سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م ٢٠ - رسالة في تعليم المريدين ٣٠ - كتاب العظمة (تفسير للفتاح) ٤٠ كتاب التفسير بالحقيقة ٥٠ - مشكاة الأنوار فيما روى عن الله سبحانه وتعالى من الأخبار ٦٠ - الأحاديث القدسية ٧٠ - تذكرة الخواص وعقيدة أهل الاختصاص ٨٠ ، ٩ - رسالة العلوم من عقائد علماء الرسوم (مختارات) ١٠٠ - صيحة اليوم بحوادث الروم (شعر باليسيط) ١٤٣ بيتا ١١٠ - الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية والملكوتية ١٢٠ - فصوص الحكم .
- ١٣ - شجرة الوجود والبحر المورود - مطبوع تحت شجرة الكون .
- ١٤ - عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب .
- ١٥ - رسالة كنه ما لا بد للمريد منه ١٦٠ - الأسرار إلى المقام الأسرى (في نفس المخطوط يوجد عنوان : الاسرار واختصار رحلة العالم الكوني إلى الموقف الأعلى) ١٧٠ - مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الالهية ١٨٠ - التدبيرات الالهية في اصلاح المملكة الانسانية ١٩٠ - مواقع النجوم ومطالع اهله الاسرار والعلوم .
- ٢٠ - مقام القرية (وفك الكربة) ٢١٠ - الأنوار فيما يفتح على صاحب الخلوة من الأسرار ٢٢٠ - الخلوة ٢٣٠ - انشاء الدوائر الاحاطية على الدقائق على مضاهاة الانسان للمخالق والخلائق .
- ٢٤ - الحق ٢٥٠ - عقلة المستوفز ٢٦٠ - تحفة السفرة إلى حضرة الكرام البررة ٢٧٠ - الحجب ٢٨٠ - وصف تجلى الذات (منسوب إليه) ٢٩٠ - حلية الأبدال وما يظهر فيها من المعارف والأحوال .
- ٣٠ - شجون المشـجـون وقتون المقتون ٣١٠ - الشواهد .

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ج ١ ص ٥٧١ .

٣٢ - الاتحاد الكونى فى حضرة الاشهاد العينى ٣٣٠ - كيمياء
 السعادة ٣٤٠ - الافاضة لمن أراد الاستفاضة ٣٥٠ - منزل المنازل
 ٣٦ - الموزانة (مقارنة بين الدنيا والآخرة) ٣٧٠ - نحت الأرواح
 (كيف خلق الله الروح والمنازل التى لا بد لها ان تمر عليها لمعرفة
 الله) ٣٨٠ - الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل الطريق من
 الشروط ٣٩٠ - الاعلام فيما بنى عليه الاسلام ٤٠٠ - الاعلام
 بإشارات أهل الالهام (الحكمة الالهامية فى الرد على الفلسفة)
 ٤١ - الفناء فى المشاهدة ٤٢ - مراتب علوم الوهب ٤٣ - فى
 الأزل ٤٤ - شق الجيب ورفع حجاب الريب عن اظهار أسرار
 الغيب ٤٥ - تفسير آية الكرسي ٤٦ - اشارات القرآن فى عالم
 الانسنان ٤٧ - كتاب السبعة وهو كتاب الشأن ٤٨ -
 تنزلات الاملاك للملائك فى حركات الأفلاك ٤٩ - توحيد التوحيد
 ٥٠ - التدقيق فى بحث التحقيق ٥١ - القسم الالهى باسم الربانى
 ٥٢ - المضادة فى علم الظاهر والباطن ٥٣ - الغايات فيما ورد من
 الغيب فى تفسير بعض الآيات ٥٤ - تاج الرسائل ومنهاج الوسائل
 ٥٥ - الرسالة المفيدة ٥٦ - الدرة الفاخرة فى ذكر من انتفعت
 بهم فى الآخرة ورسالة روح القدس (رسالات القدس فى نفحات
 النفس) ٥٧ - الجلالة ٥٨ - جواب عن مسألة السبحة
 السوداء وهى الهيولا ٥٩ - رسالة النشأتين ٦٠ - مفاتيح
 الغيب ٦١ - تهذيب الأخلاق ٦٢ - المدخل الى معرفة مأخذ
 النظر فى الأسماء والكنائيات الالهية ٦٣ - القطب والنقباء
 ٦٤ - وسائل المسائل ٦٥ - تاج التراجم ٦٦ - ترجمان
 الألفاظ المحمدية ٦٧ - الاصطلاحات الصوفية - ٦٨ - شرح
 الألفاظ التى تداولها الصوفية ٦٩ - المقتنع فى إيضاح السبل
 الممتنع ٧٠ - الحروف الثلاثة التى انعطفت وأخرها على أوائلها
 ٧١ - الألف وهو كتابة الأحذية ٧٢ - الباء وهو مفتاح دار
 الحقيقة ٧٣ - كتاب الباء وهو كتاب السهو ٧٤ - مفتاح

الجفر الجامع ٧٥٠ - جفر الامام على بن ابي طالب ٧٦٠ - أسرار
 الحروف ٧٧٠ - جفر النهاية ومبين خبايا أسرار كنوز البداية
 والغاية ٧٨٠ - فائدة (الألعاب السحرية بالحروف) ٧٩٠ - مائة
 حديث وواحد قدسية ٨٠٠ - نسب الخرقه ٨١٠ - التجليات
 الالهية ٨٢٠ - عظة الألباب وذخيرة الاكتساب (منسوب اليه) ٨٣
 - انشاء الجسوم الانسانية ٨٤٠ - نتيجة الحق ٨٥٠ - عيون
 المسائل ٨٦٠ - توقيعات ٨٧٠ - أسرار الوجود ٨٨٠ - أسرار
 المحبة ٨٩٠ - بلغة الغواص في الأكران الى معدن الاخلاص في معرفة
 الانسان ٩٠٠ - قبس الأنوار وبهجة الأسرار ٩١٠ - الفرق الست
 الباطلة وذكر أعدادها ٩٢٠ - الأجوبة الثلاثة عن الأسئلة الفائقة ٩٣
 - الطريقة في بيان الشريعة والحقيقة ٩٤٠ - مرآة المعاني
 لادراك العالم الانساني ٩٥٠ - ثواب قضاء حوائج الاخوان واغاثة
 اللهفان ٩٦٠ - الامام المبين الذي لا يدخله ريب ولا تخمين ٩٧٠ -
 التنزلات الموصلية ٨٩٠ - جدول عظيم في استخراج العقل من القرآن
 العظيم ٩٩٠ - أسفار من سفر نوح ١٠٠٠ - رسالة العبادة ١٠١
 - شرح كتاب خلع النملين في الوصول الى حضرة الجمعين ١٠٢
 - رسالة في الأحدية (أسئلة حكيم ترمذى) ١٠٥٠ - رسالة
 أرسلها لأصحاب الشيخ عبد العزيز بن محمد المهدي ١٠٦٠ - رسالة
 الغوثية ١٠٧٠ - رسالة أرسلها الى فخر الدين الرازي ١٠٨٠ -
 رسالة في تصوير آدم على صورة الكمال ١٠٩٠ - أربع رسائل
 تصوف ١١٠٠ - نسخة الحق ١١١٠ - لغة الأرواح ١١٢٠ -
 الصلاة الأكبرية ١١٣٠ - أوراد الأيام والليالي ١١٤ - أوراد
 الأسبوع ١١٥ - الصلاة الفيضية ١١٦ - وصية ١١٧٠ -
 الحكم الالهية ١١٨٠ - الصحف الناموسية والسجف الناورسية ١١٩
 - الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية ١٢٠٠ - حكم ١٢١
 - العبادة ١٢٢٠ - اللمع الأفقية ١٢٣٠ - محاضرات
 الأبرار ١٢٤٠ - ترجمان الأشواق ١٢٥٠ - ديوان (الديوان

(الأكبر) ١٢٦٠ - ديوان الأشواق (الهجاء الأمد على ترتيب
حروف الأبجد) ١٢٧٠ ديوان المرتجلات ١٢٨٠ - المبشرات
١٢٩ - تفضل الأرواح بروح الاله ١٣٠٠ - القصيدة الثائية
١٣١ - منهاج العارف والمتقى ومعراج السالك والمرتقى ١٣٢ -
المبشرات الميمونة ١٣٣ - قصيدة في المناسك ١٣٤ - الجواب
المستقيم ١٣٥ - رسالة تحقيق وجوب الواجب لذاته ١٣٦ - في
سر الحروف ١٣٧ - نجمة الأفلاك ١٣٨ - الدرر .

وقد ذكرت دائرة المعارف للبستاني له ما يقرب من خمسين
مؤلفا من بين هذه المؤلفات . وهذه المؤلفات التي ذكرت على ضخامة
عددها هي نصف مؤلفات ابن عربي فقط ، على رأى الذى يقول أن
مؤلفاته مائتان وثمانون كتابا أو ثلاثمائة كتاب ، وهى ثلث مؤلفاته
عند من يقول نيف وأربعمائة كتاب .

وأيا كان هذا أو ذاك فهو نتاج ضخم يشهد لصاحبه بالمقدرة
الخارقة الفائقة ، وهو وإن كان بعض هذه الكتب صغير الحجم ،
الا أن بعضها كبير الحجم ، فقد بلغ أحد تفاسيره ستين سفرا (١)
ولم يتمه ، فقد وقف فيه عند قوله تعالى « وعلمناه من لدنا علما »
وله تفسير آخر صغير فى ثمانية أسفار ، وكتاب الفتوحات المكية
بلغت فصوله خمسين وستمائة فى أكثر من أربعة آلاف صفحة
مطبوعة بحروف صغيرة وقد حققته أخيرا الهيئة المصرية العامة
للكتاب ونشرته فى طبعة أثيقة صدر منها عدة أجزاء .
على أن المسألة ليست بكثرة الأوراق وتضاعف الأجزاء ،
ولكنها بما تحويه هذه الأوراق من أسرار ومعارف ، والشيوخ

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٣٦ هامش .

الأكبر له في ذلك القدح المعلق والشأو الذي لا يلحق بشهادة فحول العلماء وأجلاتهم .

والملاحظ أن تأليف الشيخ الأكبر تدور حول التصوف فيما عدا أحد تفسيريه الذي يجرى فيه على طريقة التفسير التقليدي ، ولم يتم هذا التفسير ، أما التفسير الآخر فيجرى فيه على طريقة الصوفية في إشاراتهم وأذواقهم . على أن بعض الآراء تقول أن هناك تفسيراً مدسوساً عليه نشرت منه بعض دور النشر عدة أجزاء ثم توقف لذلك .

وله من الحديث عدة كتب في كل منها مجموعة من الأحاديث القدسية ، وله بدار الكتب كتاب لم يشر إليه بروكلمان يحمل اسم « أصول الفقه » برقم ٦١٢ . أما بقية كتبه فتناول فيها التصوف ودقائقه وأسراره ، حتى الكتب الأدبية كتب صوفية بما في ذلك « محاضرة الأبرار » الذي يحشد فيها كثيراً من الأسرار الصوفية وقصص المتصوفة وبعض هذه الكتب دقيق غريب ككتاب « الدوائر » الذي يشرح فيه بالأشكال الهندسية آراءه في الكون .

ويفسر في كتاب مواقع النجوم أسرار العبادات ومراحل الطريق في الوصول إلى الله وقد ألفه في « المرية » بالهام من الله وتوجيه منه .

ويبدو أن الشيخ الأكبر في كتاباته كان يخضع لهذا التوجيه وذلك إلهام ، فانه قرر في أكثر من موضع أن ذلك الكلام لم يكن اختياراً له ولكنه من إلهام الله ، نقل عنه الشعرائي في الكبريت الأحمر قوله : « واعلم أن جميع ما أتكلم به في مجالس وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه ، فاني أعطيت مفاتيح الفهم فيه والامداد منه ، كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسة الحق تعالى ومناجاته بكلامه » وكذلك قوله « واعلم أن جميع ما أكتبه في تأليفي

ليس هو عن روية وفكر ، وإنما هو من نفث روعى على يد ملك
الالهام » وكذلك قوله « جميع ما كتبته وأكتبته في هذا الكتاب إنما هو
من أملاء الهى والقاء ربانى أو نفث روحانى كل ذلك بحكم الأثر
للأنبياء والتبعية لهم لا بحكم الاستقلال » (١) .

وكل كتبه تحتاج الى دقة فهم وحسن ظن في التوفر على مطالعتها
حتى يتمكن القارئ من معرفة مقاصده منها ، وقد أشار هو الى ذلك
في الباب الثانى من الفتوحات بقوله « أقل درجات أهل الأدب مع
القوم التسليم لهم فيما يقولون ، وأعلاما القطع بصدقهم وما عدا
هذين المقامين فحرمان » (٢) .

ولكى تدرك ذلك لابد من القاء الضوء على بعض كتبه التى كانت
لها أهميتها الفائقة في جميع الآفاق العلمية والعقلية ، وهذه الكتب
هى الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم .

١ - الفتوحات المكية :

ألف الشيخ الأكبر هذا الكتاب في مكة على فترات ، وهو أجمع
كتاب في التصوف ، وتعتبره دائرة المعارف البريطانية دائرة معارف
التصوف ، وكان هذا الكتاب - ولا يزال - له أهمية كبرى بين
رجال الطريق ، فقد عبر فيه ابن عربى عن كل أنواقه ومشاهداته
وسجل فيه بدقة كل مراحل في سيره ، حتى لقد استقى منه بعض
المرجمين لحياته دقائق سيرته .

بدأ ابن عربى كتابه الفتوحات عقب ذهابه الى مكة ، وهناك
شاهد في الطواف حول الكعبة . وفى الإقامة فيها من الأسرار
والمشاهدات ما أراد أن يوقف عليه أخوانه المقربين اليه ، وفى

(١) الكبرى الأحمر ص ٤

(٢) الكبرى الأحمر ص ٦

مقدمتهم الشيخ أبو محمد عبد العزيز التونسي وتلميذه بدر الدين الحيشي ، ولذلك كان عنوانه « الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية » .

والكتاب ضخـم يحتوى على أربعة أجزاء ضخمة ، وكل جزء يحتوى على مجلدات ، وينقسم الكتاب من حيث الموضوعات الى ستة أقسام :

- ١ - القسم الأول : المعارف ويحتوى على ثلاثة وسبعين بابا
- ٢ - القسم الثانى : المعاملات ويحتوى على ستة عشر ومائة باب
- ٣ - القسم الثالث : الأحوال ويحتوى على ثمانين بابا
- ٤ - القسم الرابع : المنازل ويحتوى على أربعة عشر ومائة باب
- ٥ - القسم الخامس : المنازل ويحتوى على ثمانية وسبعين بابا
- ٦ - القسم السادس : المقامات ويحتوى على تسعة وتسعين بابا

فجملة أبوابه ستون وخمسمائة باب ، تتناول شتى العلوم والمعارف الصوفية ، كما تتناول غيرها من العلوم ، والمعارف الأخرى التى يستدعيها الحديث من فقه وحديث ومعاملات وتاريخ وسياسة وغير ذلك . يقول عنه الشـعـراني : « طالعت من كتب القوم مالا أحصيه وما وجدت كتابا أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية ، لا سيما ما تكلم فيه من أسرار الشريعة ، وبيان منازع المجتهدين التى استنبطوا منها أموالهم ، فإن نظر فيه مجتهد من الشريعة ازداد علما الى علمه واطلع على أسرار فى وجوه

الاستنباط وعلى تعليقات صحيحة لم تكن عنده ، وإن نظر فيه مفسر للقرآن فكذلك ، أو مقرر فكذلك ، أو معبر للمقامات فكذلك ، أو عالم بالطبيعة وصناعة الطب فكذلك ، أو عالم بالهندسة فكذلك ، أو نحوى فكذلك ، أو منطقي فكذلك ، فهو كتاب يفيد أصحاب هذه العلوم أو غيرها ، علوما لم تخطر لهم على بال ، قد أشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها في كتابنا المسمى تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء » (١) .

وكتاب الفتوحات نظرا لضخامته لا يمكن أن يكون قد ألف في مدة محدودة ، وإن كان بعض المصادر يشير الى أنه كان يكتب كل يوم منه ثلاث كراسات دون توقف أين كان (٢) وقال الفيروزآبادي : أنه صنف الفتوحات في مكة كتبها عن ظهر قلب جوابا لسؤال سألته عنه تلميذه بدر الحبشى ، ولما فرغ منها وضعها في سطح الكعبة المعظمة ، فأقامت فيه سنة ثم أنزلها فوجدها كما وضعها لم يبتل منها ورقة ولا لعبت بها الرياح مع كثرة أمطار مكة ورياحها ، وما أذن للناس في كتابتها وقراءتها إلا بعد ذلك (٣) .

ولكن يبدو أن ذلك كان بخصوص بعض الكتاب لا كل الكتاب ، فإن الثابت أن هذا الكتاب كان آخر كتبه تأليفا ، ذكر ذلك الأستاذ أحمد يوسف نجاتي في نفع الطيب (٤) كما ذكر أنه قد أنتهى من تأليفه سنة ٦٣٦ هـ ، وكان في ذلك الوقت مقيما بدمشق قبل وفاته بعامين ، كما أنه من الثابت أيضا أن هذا الكتاب لم يمكن تأليفه متتابعا ، ولكنه ألف على فترات ، ولم يتم تأليفه أيضا على حسب

(١) الكبرى الأحمر المقدمة .

(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٣) اليواقيت والجواهر ص ١٠ .

(٤) نفع الطيب ج ٧ هامش ص ١٣٦ .

الترتيب المتعارف . فقد ذكر أسين بلاثيوس انه في سنة ٦٢٨ هـ كان يكتب أول الجزء الرابع ، وانه في سنة ٦٣٤ كان لا يزال يكتب خاتمة الجزء الثاني وفي السنة التالية ٦٣٥ كان يكتب الجزء الثالث ، وليس هناك من يفسر سبب ذلك الا ما ذكره هو بأن ترتيب الفتوحات لم يكن من وضعه هو ، ولكن كان بناء على ما كان يملأ عليه من تروحيات سماوية ، ولذلك نسمعه يقول : بنيت كتابي هذا - بل بناه الله لا انا - على افادة الخلق ، فكله فتح من الله تعالى وسلكت فيه طريق الاختصار .

ويقول الدكتور عثمان يحيى في مقدمة تحقيق الفتوحات انه بدأ في تصنيفه بمكة عام ٥٩٩ هـ ، واتم سفره الأول تقريبا في هذه السنة نفسها فيماعداد فصلين أضافهما فيما بعد ثم تابع الأسفار الباقية ، ويظهر انه اكتملت لديه نسخة أولى من الكتاب أخذ يهد بها وينقحها في السنوات الأخيرة من حياته ، وهو يصرح في آخر الفتوحات انه كتب نسخة ثانية بخط يده وفرغ منها عام ٦٣٦ هـ قبل موته بعامين .

وليس من اليسير اعطاء فكرة ولو موجزة عن هذا الكتاب الذي « يعد كنزا دفيناً » على حد تعبير مؤلف كتاب ابن عربي . اللهم الا اذا قلنا كما قال السادة الصوفية عنه : انه أجمع كتاب للتصوف بما احتوى عليه من دقائق التصوف وارشاداته ، ومن الموضوعات العامة للكتاب السابق الاشارة اليها يمكن ادراك ذلك بوضوح ، كما انه لم يهمل العلوم الأخرى ، حتى انه ليجد فيه كل مطلع بغيته ورغبته .

ويغلب على كتاب الفتوحات الاستطراد الذي يبعث عليه الرغبة في الافادة التي هدف اليها من وضع كتابه ، كما انه لم يغفل في كتابه ما يحتاج اليه المريد من خطوط أساسية تعينه على بلوغ هدفه وسيره في طريقه بأمان . وكثيرا ما يشير فيه الى كتبه السابقة .

ولم يغفل ابن عربى ما يجب على المريد معرفته من أسرار العبادة وأدابها ، مقدما له فى الجزء الأول زادا كافيا فى النية والطهارة وأنواعها وأسرارها والصلاة وفروضها وشرائطها وأركانها وسننها وأوقاتها وأدابها وكيفية إقامتها وأسرار أدائها وغير ذلك من ألوان المعرفة الفقهية والشرعية التى تصل بالمريد الى أبواب المعرفة الصوفية الشاملة •

ويعد كتاب الفتوحات سجلا لحياة الشيخ الأكبر ، فقد بين فيه بالتواريخ خطوات حياته التى أفاد منها بعض المترجمين لها ، كما أنه يعد سجلا لما شاهده فى تاريخ هذه الحياة الحافلة بالأسرار والأنوار وما كشف له فيها وما لاقاه من مصاعب وما أتيح له فيها من فرص روحية •

على أن ذكر هذه الخطوات لم يأت على نظام كتابة السير المعروفة ، ولكنه يأتى عفوا على حسب ما تسنح به المناسبة ويستدعيه المقام • فهو عند حديثه عن الأبدال مثلا يذكر من لقيه منهم ومتى ، ويسجل ما دار بينه وبينهم من حديث • وعند حديثه عن التوكل يذكر من لقيه من المتوكلين ومتى وأين وكيف كان حديثه معه وماذا أفاد منه •

وعند حديثه عن الخضر يذكر طرفا من لقائه معه وماذا دار بينهما من حديث وهكذا •

ومن الكتاب ندرك أن تأليفه لم يكن يسير على نمط الكتب العادية التى تجرى على منهج معين وتسير على حسب خطة موضوعة • ولكنه يسير على وفق ما يجرى به خاطر الروحى وقد ذكر ذلك فى غير موضع ويقول : « وأعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكرى ، وإنما الحق تعالى يملئ لنا

على لسان ملك الالهام جميع ما نسطره وقد نذكر كلاما بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده وذلك شبيهه بقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، بين آيات طلاق ونكاح وعدة وفاة تتقدمها وتتأخرها » (١) ويقول « اعلم أن العارفين انما كانوا لا يتقيدون بالكلام على ما بوبوا عليه فقط لأن قلوبهم عاكفة على باب الحضرة الالهية مراقبة لما يبرز منها فمهما برز لها أمر بادرت لامثاله ، والفته على حساب ما حولها ، فقد تلقى الشيء الى ما ليس من جنسه امثالاً لأمر ربها » (٢) .

وفي أول بعض الأبواب نجد قصيدة من الشعر تشير الى مضمون الباب وقد لا تشير اليه وهذه الطريقة سار عليها الجيلي من بعده في كتاب الانسان الكامل . وقد أشار الشيخ الأكبر نفسه الى هذه الملاحظة ، وهى عدم اجمال موضوع الباب في القصيدة المقدمة في بعض الأحيان بقوله : واعلم أن هذه القصيدة وكل قصيدة من أول كل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منها اجمال ما يأتى مفصلاً في نثر الباب والكلام عليه ، بل الشعر في نفسه من جملة شرح ذلك الباب فلا يتكرر في الكلام الذى يأتى بعد الشعر ، فليُنظر الشعر في شرح الباب كما ينظر النثر من الكلام عليه نفس الشعر من مسائل ذلك الباب ما ليس في الكلام عليه بطريق النثر وهى مسائل مفردات تستقل كل مسألة في الغالب بنفسها الا أن يكون بين المسألتين رابطة فيطلب بعضها بعضاً » .

ونظرا لخطورة هذا الكتاب وما يحتوى عليه من معلومات أثارت معارك جدلية غير قليلة برز الاهتمام به بين الصوفية وغيرهم .

(١) الفتوحات المكية الجزء ٣ الباب ٣٤٨ .

(٢) الكبريت الأحمر : المقدمة .

ويبدو أن بعض المغرضين قد أضاف إليه ما ليس منه مما يعد منافيا للشرعية بقصد الاضرار بمؤلفه ، وحين قوبلت هذه النسخة المحرفة بالنسخة الأصلية ظهر الزيف وكانت النسخة الأصلية محفوظة « بقونية » .

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هناك كثيرا من القضايا الواردة في الفتوحات ليس من الممكن فهمها بسهولة ، ويرجع ذلك الى أن ادراكها لا يتم الا بالتمكن من الطريق الصوفي ، ومن هنا جاء التنبيه الى أنه لا يحق لكل من أراد الاطلاع أن يطلع على هذا الكتاب . وهذا الحكم ليس منصرفا في الواقع الى كتاب الفتوحات وحده ولكنه ينصرف الى الفتوحات وغيره من الكتب التي ألفها الشيخ الأكبر .

وقد شرح الجبلى كتاب الفتوحات ، كما تأثر به فى كتابه المشهور « الانسان الكامل » فى معرفة الأواخر والأوائل .

واختصره الشعرائى فى كتاب « لوائح الأنوار القدسية » ، وعاد فاختصره مرة أخرى من كتابه « الكبريت الأحمر » ، وذكر فى كتاب « اللواقيت والجواهر » مسائل متعددة منه ومن ذلك مثلا قال « محبى الدين بن عربى » فى صفة العارف بالله :

« هو من أشعر قلبه الهيبة والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق تعالى وإذا ذكر الله واستولى عليه الذكر يغيب عن الأكوان ، يهابه كل ناظر اليه ، هو مع الله بلا وصل ولا فعل ، كثير الحياء ، فى قلبه التعظيم ، يقدم حق الحق تعالى على حظوظ نفسه ويطنه جائع ، ويدنه عار ، لا يأسف قط على شيء لكونه لا يرى غير الله . طيار أمد الدهر ، تبكى عينه ويضحك قلبه ، هو كالأرض يطؤه البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالطر يسقى ما يجب وما لا يجب ، لا يقضى وطره قط من شيء ، وذلك ليدوم

افتقاره الى الله تعالى ذوقا ، شأنه الفقر والذل بين يدي الله يفتح له في فراشه كما يفتح له في صلاته وان اختلفت الواردات بحسب المواطن » .

وللفتوحات مقدمة طويلة لها قصة طريفة ، هي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أحاط به الملائكة والأنبياء والأولياء والعلماء فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم للصعود على منبره ، وخلع عليه بردته البيضاء ، وألقى « ابن عربى » خطبة طويلة يقول أنها من وحى روح القدس ، وهذه الخطبة هي مقدمة الكتاب .

والمقدمة نفسها تحترق على آرائه الروحية التى يوضح فيها مضمون موضوعات الكتاب السابق الاشارة اليها .

وبالجملة فان هذا الكتاب من الكتب التى تستحق جهد المهتمين بشئون التصوف ، فيتولونه بالتحقيق ويتعهدونه بالنشر وجودة الطبع في ثوب أنيق جميل يليق بما يحتويه من علوم رائعة وأسرار فائقة وأذواق عالية – ويا حبذا لو تيسر اقتناؤه مع غيره من كتب هذا العبقري الفذ الذى كان يحلق في أجواء المعرفة لا يهدأ له بال ولا يستريح من عناء التجوال – وترك من ورائه هذه الثروة الحية التى تشهد بعلو الباع ورسوخ القدم وقوة التمكن .

وحمدا لله فقد تحقق جزء من هذه الأمنية العزيزة حين تضافر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وجامعة السوربون على تحقيق هذا الكتاب ونشره عن طريق الهيئة المصرية العامة للكتاب وقد ثارت ضجة أشرفت اليها سابقا ، وان كان هناك تعقيب على هذه الضجة التى قامت من أجل هذا الكتاب وعقيدة صاحبه فحسبى أن أقدم هذه الفقرات التى وردت في أول الجزء الأول منه :

« يا اخوتى المؤمنين - ختم الله لى ولكم بالحسنى - أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير الى الله تعالى فى كل لحظة وطرفة وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئته ، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولاً وعقداً أن الله تعالى اله واحد لا ثانى له فى ألوهيته منزّه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له ، ملك لا وزير له ، صانع لا مدبر معه ، موجود بذاته من غير افتقار الى موجد يوجده بل كل موجود سواه مفتقر اليه تعالى فى وجوده ، فالعالم كله موجود به وهو وحده متصف بالوجود لنفسه • فسبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الاحسان ، كل ما سواه عن وجوده فائض •

كذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وأياكم على نفسى بالايمان بمن اصطفاه واجتباّه من وجوده ، ذلك سسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بأذنه وسراجاً منيراً •• وانى مؤمن بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم مما علمته وما لم أعلم ، فهذه شهادتى على نفسى أمانة عند كل من وصلت اليه أن يؤديها اذا سئلتها حيثما كان •

هذا وان كان ابن عربى قد أثره الله بشيء من الكشف وأعطاه جزءاً من الفتح فقد استحق ذلك عن جدارة فائقة جزاء لمجاهداته ولكل مجتهد نصيب ، على أن الفيض الالهى منحة من الله لمن شاء من عباده ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب •

وفى هذا الكشف أسرار قد ترق وتندق وأحياناً تفيض على اللسان رغماً ولكنها تأتى محجة بالرموز وكم لاقى أصحابها من المعارضات والانكار لأنهم تحدثوا عما لا تدركه العقول ، ولذلك صرح ابن عربى فى كتابه هذا بأن عقيدته هذه هى عقيدة العوام التى اشرت اليها بالعبارة التى استشهدت بها مختصرة من كلامه ، وهذه

العقيدة هي عقيدة الذين سلمت عقائدهم لأنهم تلقوها من ظاهر الكتاب العزيز ، وهو لذلك يدعو الى عدم تعلم علم الكلام الا لأفراد قلائل بقصد ردع الخصوم ودفع الشبه ، ويقول في حق علماء الكلام : انهم رضى الله عنهم اجتهدوا وخيرا قصدوا وان كان الذى تركوه أوجب عليهم من الذى شغلوا نفوسهم به .

وعقيدة الخاصة وان كانت مطابقة لعقيدة العوام الا ان الكشف والالهام والفتح يقويها ويؤكدها فهي اذن من عين اليقين ، وما راء كمن سمعا ، وشتان بين من يسمع ويقلد وبين من يحاين ويشاهد . والمشاهدة تزيد المشاهد بiana وايمانا وتملؤه عقيدة وبرهانا ، ولى هذا يقول الغزالي :

فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيرا ولا تسال عن الخبر

ويقول ابن عربى فى ذلك : وأما التصريح بعقيدة الخاصة فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض ولكن جئت بها مبددة فى ابواب هذا الكتاب مستوفاة لكنها متفرقة ، فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف قدرها ويميزها فانها العلم الحق .

والعلوم فى رأيه على ثلاث مراتب « علم العقل وهو كل علم لك ضرورة أو عقيب نظر ، وعلم الأحوال ولا سبيل اليه الا بالذوق كالمعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر . وعلم الأسرار وهو العلم الذى فوق طور العقل ، وهو علم نفث روح القدس فى الروح ، ويختص به النبى والولى .

ان علوم الأسرار تلك هي التى يشير اليها ابن عباس رضى الله عنهما بقوله : عند تفسير قوله تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » : لو ذكرت تفسيره لرجتمونى ، وفى رواية لقلت انى كافر ، ويشبهه قول الرضى :

يارب جوهر علم لو أبوح به لقليل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وقد اعتذر ابن عربي عن نفسه وعن غيره من علماء الصوفية الذين غلبتهم أحوالهم فباحوا ببعض الأسرار كما اعتذر أيضا عن أنكر عليهم بقوله : « وينبغي للعاقل العارف أن لا يأخذ عليهم فان فى قصة موسى مع الخضر مندوحة لهم وحجة للطائفتين ، وإن كان انكار موسى عن نسيان لشروطه ولتعديل الله آياه ، وبهذه القصة عينها نحتج على المنكرين ولكنه لا سبيل الى خصامهم ، ولكن نقول كما قال العبد الصالح : « هذا فراق بينى وبينك » .

ان علم الأسرار عزيز وصعب المنال ومن خصائصه أن العبارة لا تستطيع أن تحتويه ، بل اذا أخذته سمج واعتاص على الأفهام ومن هنا لجأ الصوفية الى الرمز ، بخلاف العلم النظرى فان العبارة كلما بسطته حسن وفهم معناه أو قرب عند السامع الفهم .

وبعد ، فان هذا الكتاب كما يقول الدكتور عثمان يحيى أحد روائع الفكر الانسانى وأثر فريد فى الدراسات الصوفية عامة والاسلامية خاصة ، خلاصة نتاج الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى ، وما أغزره ٠٠ ولم يزل منا بعد حظه من الدرس والبحث عنى به فى الماضى عناية ملحوظة وانتشر فى المشرق والمغرب بواسطة سلسلة متصلة الأسانيد ، وشرح وعلق عليه ولخصت أجزاء مختلفة منه ، وترجمت بعض أجزاءه الى الفارسية والتركية ٠٠

وليس فى وسعى - لعجزى - تلخيص الكتاب وبخاصة فى دراسة قصيرة كهذه وحسبى أن كنت فى هذه العجالة ولحدا من الدالين اليه الناصحين بالتوفر على قراءته ودراسته فهو كنز دفين كما قال العلماء الذين عرفوا حقه ، ولو قرأه الناقدون عليه باخلاص

لغيروا رأيهم ، وأدركوا قيمة ما فيه من جواهر فريدة ، ويكفى أن يكون مؤلفه قد ألفه للدلالة على الله وهل هناك أشرف من هذا الغرض وأسمى من هذا الهدف ؟ •

٢ - فصوص الحكم :

يعد هذا الكتاب من أشهر الكتب التي كان لها أثر في إذاعة مكانة الشيخ الأكبر ، نظرا لما يدل عليه من أخبار عن حقائق الأنبياء السابقين وعددهم سبعة وعشرون نبيا هم : آدم ، وشيث ، ونوح ، وإدريس ، وإبراهيم ، وإسحاق ، وإسماعيل ، ويعقوب ، ويوسف ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، والعزير ، وعيسى ، وسليمان ، وداود ، ويونس ، وإيوب ، ويحيى ، وزكريا ، وإلياس ، ولقمان ، وموسى ، وهارون ، وخالد بن سنان ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام • وقد ألف ابن عربي هذا الكتاب في دمشق عقب اتخاذها دار إقامة له ، ويقول في مقدمة كتابه : « أما بعد فاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أديتها من العشر الآخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب ، فقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم ، خذه واخرج به الى الناس ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر منا ، كما أمرنا فحققت الأمنية وأخلصت النية ، وجردت القصد والهمة الى إبراز هذا الكتاب كما عده لي الرسول من غير زيادة أو نقصان ، وسألت الله أن يجعلني فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وأن يخصني من جميع ما يرقمه بناني وينطق به لساني وينطوي جناني بالالقاء السيوي والنفث الروحي في الروح النفسى بالتأييد الاعتصامي ، حتى أكون مترجما لا متحكما ، ليتحقق من يقف عليه من أهل الله أصحاب القلوب أنه من مقام التقديس ، المنزه عن الأغراض النفسية التي يدخلها

التلبيس ، وأرجو أن يكون الحق لما سمع دعائى قد أجاب ندائى .
فما ألقى الا ما يلقى الى ، ولا أنزل من هذا المسطور الا ما ينزل
به على ، ولست بنبى ولا رسول ولكنى وارث ولآخرتى حارث » .

معنى كلمة الفصل :

وقد استعار كلمة الفصل للانسان الذى يمثل الحقيقة بالنسبة
لبقية أنواع العالم كما يمثل نقش الفصل فى الخاتم حقيقة
الخاتم . فكان العالم خاتم فصه الانسان ، وهذا يبين أفضلية
الانسان على العالم ، ثم جعل الأنبياء فصوصا بالنسبة لأفراد
الانسان ، فكان الانسان خاتم فصه الأنبياء .

وقد أشار القاشانى الى هذه التسمية عند تعرضه لشرح
أول فص من قصص الحكم قائلا : « لما استعار الفصل لنوع
الانسان وحقيقته المعبر عنه بآدم كان قلب كل انسان عارف بالله
كامل فصا هو محل حكمته المخصوصة به ، كما أشار ابن عربى
نفسه الى سبب هذه التسمية عند حكمة آدم بقوله : « فهو
(أى آدم) من العالم كفص الخاتم من الخاتم هو محل النقش
والعلامة التى يختم الملك بها على خزائنه » .

الكتاب من علوم الأسرار :

وقد عمد الشيخ الأكبر كمادته فى تأليفه الى الافاضة فى
الأسرار التى كوشف بها ، وتوصل اليها بناء على ذوقه وفهمه ،
فان العلم فى نظره ثلاثة أنواع ، كما أشار الى ذلك فى كتاب
الفتوحات ، هى علم العقل الذى يحدث بناء على النظر والتفكير
والاستدلال ، وعلم الأحوال وسبيله الذوق ، وعلم الأسرار وهذا
فوق طور العقل ، وطريقه نفث الروح فى الروح ، وهذا العلم

نوعان : نوع يدرك بالعقل والآخر على ضربين : ضرب يدرك بالذوق والثانى عن طريق الاخبار .

وهذا العلم الذى بثه فى كتابه فصوص الحكم من النوع الثالث ، الذى فوق طور العقل وجاءه عن طريق نفث الروح فى روعه كما أشار الى ذلك فى مقدمة كتابه . ولذلك فقد أوجد هذا الكتاب صدى كبيرا بين طوائف الصوفية والفقهاء وعده كثير منهم معبرا عن رأى ابن عربى فيما أسند اليه من نظرية وحدة الوجود ، ولكن ينبغى التنبه الى ما سبقت الإشارة اليه من هذه الوحدة ، التى لا يصح تفهمها على أساس اتحاد بين قديم وحديث أو حلول قديم فى محدث ، فذلك الذى نبه الصوفية جميعهم وبخاصة الشيخ الأكبر على وجوب نفيه من الأذهان تماما لتعارضه مع جلال الذات الالهية القديمة المحيطة التى وسعت كل شئ ولم يسعها شئ ، وأن وحدة الوجود التى يقصدونها إنما هى اثبات الوجود الحقيقى لمواجب الوجود وأما غيره من المحدثات فلا وجود له على سبيل الحقيقة مع الله تعالى .

وقد نبه شراح الفصوص جميعهم على وجوب مراعاة هذه الدقائق ، وأفاضوا فيها وشرحوا مقصد الشيخ من عباراته الموهمة التى وردت فى الكتاب من أمثال قوله عن « نوح » .

« فما أنت هو ، بل انت هو وتراه فى عين فى الأمور مسرحا ومقيدا » فان المقصود نفى المماثلة من جهة وإثباتها من جهة ، نفيها من حيث أنه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ، وإثباتها من حيث الصفات التى يجب أن يتخلق بها الانسان فى قوله عليه الصلاة والسلام تخلقوا بأخلاق الله ، فالانسان له صفة السميع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك . وهى صفات أثبتها الله جل جلاله لنفسه وعلى هذا فينبغى مراعاة أمثال هذه الاشارات

في كلام الشيخ الذي لا يقصد منه حلولا أو اتحادا ، بل هي عبارات واردة في أحوال خاصة عبر بها عن مدلولات ذاتها وكوشف بها ، وكان القصد من بثها هو الصعود بالفكر الانساني الى مرتبة عليا ، تحثه على بذل الجهد من ادراك معرفة نفسه التي هي سبيله الى معرفة ربه ، ولذلك نسمعه يوجه الأذهان الى التفكير في مدلولات الكلام لادراك ما يقصد ادراكا حقيقيا لا يتناقى مع مرامى الشرع ومقاصده :

فمن الله فاسمعوا	والى الله فارجعوا
فاذا ما سمعتم	ما آتيت به فعوا
ثم بالفهم فصلوا	مجعل القول واجمعوا
ثم منوا به على	طالبيه لا تمنعوا
هذه الرحمة التي	وسعتكم فوسعوا

مراتب الأنبياء :

وقد أشار ابن عربي في كتاب القصص الى الأنبياء على حسب مراتبهم ، فأدم أراد الله أن يظهر به سره اليه ، وشيث وهو الولد الأول لأدم هو المظهر للفيض الالهي ، ونوح هو مظهر تنزيه الله عن كل نقص ، وادريس كذلك ، ولذلك أضاف نوحا الى التسبيح وادريس الى التقديس ، وإبراهيم عليه السلام - كان في مرتبة التهيم ، وهو شدة التوله والعشق لأن الحق تجلى له بجلال جماله فهام في ذلك الجمال المبرقع بالجلال ، وكان اسحق في مقام التحقق لأنه حقق رؤيا أبيه فيه بذبحه (١) ، وخص اسماعيل بالحكمة العلية ، وغلبت الروحانية على يعقوب والنور على يوسف . . وهكذا .

(١) رايه في هذا أن اللبيح اسحاق ، ولكن المعروف عند جمهور العلماء أن اللبيح هو اسماعيل ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا ابن اللبحين .

وقد عد ابن عربى لقمان من الأنبياء ووصفه بأنه من أهل مقام الاحسان وذلك لأن الغالب على حاله عليه السلام الاحسان بالشهود العلمى والحكمة والتوحيد والاسلام فى قوله تعالى « ومن يسلم وجهه لله فهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » وقوله « وآتيناه لقمان الحكمة » والحكمة والاحسان اخوان لأن الاحسان فعل ما ينبغي والحكمة وضع الشئ فى موضعه ، ويظهر ذلك فى وصيته لابنه : يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم^(١) وقد اختلف العلماء فى شأن لقمان هل هو نبي أو حكيم ، « وهو لقمان بن باعورا ، ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل : كان من أولاد أزر ، وعاش ألف سنة ، وأدرك داود عليه السلام واخذ منه العلم ، وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له : لم ؟ فقال : إلا أكتفى إذا كفيت ؟ » وقيل : كان قاضيا فى بنى اسرائيل « وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا ، وقال عكرمة والشعبي : كان نبيا ، وقيل : خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة »^(٢) .

كما ذكر الشيخ الأكبر خبر النبى الذى أضاعه قومه وهو خالد بن سنان وكان مشهده الصمدية ، وهو نبى لم يبعث ، وأخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عنه : هو نبى أضاعه قومه .

وكان من قصة خالد : أنه كان قوى الهمة ، والغالب عليه شهود الأحدية ، وكان هو وقومه يسكنون بلاد عدن ، فظهرت بينهم نار عظيمة خرجت من مغارة فاهلكت الزرع والضرع ، فصعد اليه قومه على حسب ما اعتادوا منه فى دفع الملمات ، حتى يدفع عنهم أذى تلك النار ، وكانوا مؤمنين بها فأخذ خالد يضرب تلك النار بعصاه من

(١) شرح القاشانى على فصوص الحكم ص ٣٧٢ .

(٢) يتصرف من الكشف ج ٣ ص ٩٣ تفسير لقمان .

خلفها ويقول : يدا يدا ، حتى بردت النار ، فرجعت هاربة منه الى المغارة التى خرجت منها ، وهو يسوقها حتى أدخلها ، ثم قال لأولاده وقومه : انى أدخل المغارة خلف النار حتى أطفئها ، فأمرهم أن يدعوه بعد ثلاثة أيام تامة ، فانهم ان نادوه قبل انقضاءها فهو يخرج ويموت وان صبروا خرج سالما وقد دفع عنهم مضرة النار ، فلما دخل صبروا يومين واستفزه الشيطان فلم يصبروا تمام ثلاثة أيام ، قارتابوا انه هلك •

فصاحوا به فرجع عليه السلام من المغارة ويداه على رأسه من الألم الذى أصابه من صياحهم ، فقال لهم : ضيعتمونى وأضعتم قولى وعهدى ، وأخبرهم بموته وأمرهم أن يقبروه ويرقبوه أربعين يوما ، فانه يأتهم قطيع من الغنم يقدمها حمار أبتز مقطوع الذنب ، فاذا حازى قبره ووقف فلينبشوا عليه قبره فانه يقوم ويخبرهم بجلية الأمر بعد الموت عن شهود ورؤية ، فيحصل للمخلق كلهم عين اليقين بما أخبرت به الرسل عليهم السلام •

ثم مات خالد ، فدفنوه ، فانتظروا مضى الأربعين يوما وورد قطيع الغنم فجاء القطيع كما ذكر يقدمه حمار أبتز ، فوقف حذاء قبره ، فهم مؤمنو قومه وأولاده أن ينبشوا عليه كما أمرهم ، حتى يخبرهم بصدق الأنبياء والنبوات كلها ، فأبى أكابر أولاده ، وقالوا : يكون علينا عارا عند العرب أن ينبش على أبينا فيقال فينا : أولاد المنبوش ، وندعى بذلك ، فحملتهم الحمية الجاهلية على ذلك فضيعوا وصيته وأضاعوه •

ثم بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت بنت خالد فقالت لها صلى الله عليه وسلم ، مرحبا يا بنت نبي أضاعه قومه (١) •

(١) شرح القاشانى على الفصوص من ٤٢٥ •

وقد وردت هذه القصة في محاضرة الأبرار (١) وفي حياة الحيوان للدميري (٢) .

وختم الشيخ الأكبر قصوصه الحكيمية بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مسك الختام وهو ترتيب طبيعى لتنسيق الكتاب، ويوضح ابن عربى رأيه فى الحقيقة المحمدية على اعتبار أنه صلى الله عليه وسلم فى مقام الفردية ، لأنه أول التعينات وكان أول دليل على ربه فهو أوتى جوامع الكلم التى هى مسسميات آدم ، فقد علم الله آدم الأسماء ، علم محمدا حقيقة هذه الأسماء ومعانيها . وهذا هو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام : أعطيت جوامع الكلم ، وقد أشار الى هذه الحقيقة فى مؤلفاته الأخرى : مثل الفتوحات المكية وشجرة الكون .

رأى العلماء فى الكتاب :

هذا وقد ذكر الأستاذ أحمد يوسف نجاتى فى نفح الطيب أن العلماء اختلفوا فيما أورده فصوص الحكم ردا وقبولا ، فبعضهم أثنى عليه وتقبله بقبول حسن وشرحه ، ومن هؤلاء : ابن الزملى كمال الدين محمد بن على الأنصارى الشافعى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، وشرحه أيضا المولى عبد الرحمن بن أحمد الجامى المتوفى سنة ٨٩٨ هـ وشرحه غير هذين كثير ومنهم الشيخ عبد الرازق القاشانى وعلق على هذا الشرح الشيخ محمد البارونى .

وفى حياة الشيخ الأكبر قام تلميذه صدر الدين القونوى بشرح هذا الكتاب واستمرت بعد ذلك الشروح تتوالى ومن بينها الشروح

(١) ج ١ ص ٥٥ .

(٢) ج ٢ ص ٢٩٥ ط دار التحرير .

التي أشرنا إليها • وبذل في ذلك مجهودات وافرة تشهد بالمهارة وقوة الإدراك • وكانت هذه التفسيرات جميعها تتجه اتجاهها سنيا لا يتعارض مع ظاهر الشريعة وفي ذلك شهادة لابن عربى بأنه لم يناقض مذهب أهل السنة • وإن كان البعض من كبار الصوفية المتشددين مثل القارى الهروى المتوفى سنة ١٠١٦ هـ • وكذلك التفتازانى المتوفى سنة ٧٩١ هـ والشيخ إبراهيم محمد الحلبي الخطيب بجامع السلطان محمد خان المتوفى سنة ٩٥٦ هـ عارضوا ابن عربى في آرائه وألف بعضهم كتباً ترد على الفصوص •

وقد ترجمت أبواب الفصوص ترجمة موجزة الى الهندية ونشرت في مدينة موراس سنة ١٩٢٩م (١) •

وقد تأثر كثير من الصوفية بآراء ابن عربى في كتابه الفصوص وبخاصة في فكرة الحقيقة المحمدية التي سرعان ما اتجه اليها المادحون والشعراء والأدباء في قصائدهم وفي صيغ صلواتهم التي يمدحون فيها النبى ويصلون عليه •

ولعل البدوى وهو يكاد أن يكون معاصراً لابن عربى قد نحا هذا النحو فقد أثرت عنه هذه الصيغة « اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد شجرة الأصل النورانية ، ولعة القبضة الرحمانية ، وأفضل الخليقة الانسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية ، ومعدن الأسرار الربانية ، وخزائن العلوم الاصطفائية ، صاحب القبضة الأصلية والبهجة السننية والرتبة العلية ، من اندرج النبيون تحت لوائه فهم منه واليه • • » (٢) •

(١) ابن عربى ص ٦٨ •

(٢) فتح الرسول (صلوات للميرغنى) •

ويبدو أن ابن عربي ليس أول قائل بهذه الفكرة فقد سبقه إليها
الحلاج وأثر عن ابن مشيس أستاذ الشاذلي المعاصر لابن عربي هذه
الصلالة :

« اللهم صل على من منه انشقت الأسرار ، وانفلقت الأنوار ،
وفيه ارتقت الحقائق ، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاعلت
الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله
موتقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ، ولا شيء الا وهو
به منوط ، اذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل - المتوسط ، صلاة تليق
بك منك اليه كما هو أهله ، اللهم انه سرّك الجامع الدال عليك ،
وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك ، اللهم الحقنى بنسبه وحققنى
بحسبه ، وعرفنى اياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل ، واكرع
بها من موارد الفضل ، واحملنى على سبيله الى حضرتك حملا
محقوفا بنصرتك واقذف بى على الباطل فأدمغه ، وزج بى بحار
الأحدية ، وانشلنى من أوحال التوحيد وأغرقتنى فى عين بحر الوحدة
حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس الا بها » (١) .

ومن صلوات سيدى أحمد بن إدريس التى تظهر فيها فكرة
الحقيقة المحمدية واضحة قوله : « اللهم صل على طامة الحقائق
الوجودية الكبرى ، وسر الخلوة الالهية ليلة الاسرا تاج المملكة
الالهية ، ينبوع الحقائق الوجودية ، بصر الوجود وسر بصيرة
الشهود ، حق الحقيقة العينية وهوية المشاهد الغيبية » .

قال شارح الصلوات محمد بهاء الدين البيطار : لا يخفى أن
الحقيقة المحمدية أول التنزلات من الطمس الذاتى الذى لا يعبر عنه
بعبارة ولا يرتقى اليه بأشارة ٠٠ وأن كانت هناك عبارة تشير اليه

(١) فتح الرسول (صلوات الميرغنى) .

فهي ما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر ، وكنت نبيا وأدم بين الماء والطين .

لقد كانت بشرية النبي صلى الله عليه وسلم نورا محضا حتى لقد ورد عنه قوله : انى لأراكم من وراء ظهري ، وكان نور المصطفى صلى الله عليه وسلم هو المعنى بروح الله المنفوخ في آدم حيث يقول الله تعالى (ونفخت فيه من روحي) وقد أشار الى ذلك المعنى سيدي على وفا قدس الله سره :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمرود باهر حسنه عبد الجليل مع الخليل أو ما مجد

ولعله يقصد بالطمس الذاتي ما ورد في الأثر القدسي : كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفوني .

أما طامة الحقائق الكبرى فهي تشير الى قوله تعالى :

« وما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

يعنى رأى حقيقته التى هى طامة الحقائق فهي آية ربه الكبرى ، ان لم يكن أكبر منها ولا أشمل ولا أجمع فما زاغ بصره صلى الله عليه وسلم وما طغى .

أما المقصود بالخلوة الالهية فهو ما كوشف به النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء من معرفة حقيقة نفسه ، تلك الحقيقة التى ظهرت في اقتداء النبيين عليهم السلام به في صلاة جامعة ، فهو امامهم وهم النائبون عنه في تبليغ دعوتهم الى أممهم ، فان الدين عند الله هو الاسلام ، ولذلك قال بعضهم في ذلك :

كل النبيين والرسل الكرام اتوا نيابة عنه في تبليغ دعواه
فهو الرسول الى كل الخلائق في كل العصور ونابت عنه افواه

ولقد ظهر ذلك واضحا في قوله تعالى : «واذ أخذ الله ميثاق
النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم
لتؤمنن به ولتنصرنه قال ااقررتم واخذتم على ذلكم اصري قالوا
اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين » .

خاتمة

وبعد ، فقد تتبعنا خطوات هذه الشخصية العظيمة التي تركت
آثارها واضحة في كل مكان حطت رحالها فيه .

وهي شخصية • تحتاج الى افاضة أكثر في عرض مختلف
الجوانب التي ذكرت والتي لم تذكر .

لقد كانت حياة الشيخ الأكبر سلسلة متواصلة من العمل
والسعى والبحث والمعرفة والتجوال ، لقد أثار الله بصيرته فذاق
وكشف وشاهد ووصل الى مكانة في المعرفة أطلق عليه من أجلها :
سلطان العارفين • والعارف فسرده هو بأنه من أشعر قلبه الهيبة
والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق • وفسره أبو العباس
المرسى بقوله : العارف لا دنيا له ، لأن دنياه لآخرته وآخرفته لربه •

وكانت حياة « ابن عربي » تصديقا لهذه التفسيرين • فهو لم
تصرفه علاقة عن ربه ، ولم تكن له دنيا لأنه تركها لآخرته •

لقد كانت غايته المعرفة ، ومنذ نعومة أظفاره وهو مجد في سبيل
هذه الغاية هجر من أجلها كل لذة ، واستعذب كل عناء ، وركب
كل صعب •

لقد رأينا كيف صوبت اليه سهام الملام وكيف اعترضت طريقه
المصاعب فلم يثنه ذلك عن غايته ، وهكذا كانت حياته حافلة بالجهاد

الأكبر . حتى تحقق بمختلف المقامات التي بدأها بالزهد العملى وانتهى بها الى مقام المعرفة وهو أعلى مقامات الوصول .

لقد أفاض سلطان العارفين فى أسرار المعرفة وتحدث عن حقائق تركت صداها العميق فى آفاق الفكر الاسلامى وأبرز للتصوف مفاهيمه العليا فى نواحيه الأخلاقية والنفسية والروحية ، ولذلك يعده الدكتور مصطفى حلمى من أوفر المسلمين حظا من التصوف ويقول فى ذلك « ولعل محيى الدين بن عربى قد أظهرنا على ائتلاف العناصر الالهية والانسانية والكونية واتساقها فى كثير من مصنفاته، كما يقول : وليس من شك فى أن ما يعرض له ابن عربى فى مصنفاته يكفى لظهار حقيقة التصوف الاسلامى وأنه ليس مجرد أشواق وأذواق ولا مجرد رياضات ومجاهدات ولا مجرد أحوال وأفعال وإنما هو بعد هذا كله فلسفة الهية وانسانية وكونية وأن هذه الفلسفة بخصائصها الاسلامية الخالصة هى معقد الطرافة ومناطق الروعة فيما خلف ابن عربى وأشباهه من صوفية المسلمين(١) »

ان حياة الشيخ سلطان العارفين التى تألفت فى آفاق الشرق الاسلامى على مدى ثمانين عاما ليست حياة شخص عاش هذه الحقبة من الزمن ثم راح . ولكنها حياة بدأت ومازال اثرها حيا باقيا بما خلفته هذه الشخصية من مناقب وآثار ، ومعارف تحيا عليها العقول والقلوب وتقتات منها النفوس والأرواح . وتحلق فى سمائها الخواطر والأذهان ٧

رحم الله « ابن عربى » ورضى الله عنه ٧
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما
كثيرا والحمد لله رب العالمين ٧

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

(١) مجلة منبر الاسلام جبادى الآخرة ١٣٨١ هـ .

المصادر

- ١ - الفتوحات المكية لابن عربي
- ٢ - ذخائر الأملق شرح برجمان
الاشواق لابن عربي
- ٣ - محاضرة الأبرار ومسامرة
الأخيار لابن عربي
- ٤ - الأمر المحكم المربوط فيما يلزم
أهل الطريق من الشروط لابن عربي
- ٥ - شجرة الكون لابن عربي
- ٦ - مواقع النجوم لابن عربي
- ٧ - شرح القاشاني على فصوص
الحكم عبد الرازق القشاني
- ٨ - الطبقات الكبرى الشعراني
- ٩ - اليوافيت والجواهر الشعراني
- ١٠ - الكبريت الأحمر الشعراني
- ١١ - ابن عربي حياته ومذهبه أسين بلايوس ترجمة د. عبد الرحمن
يدوي
- ١٢ - شذرات الذهب لابن العماد

- ١٣ - الشعر الاندلسى ترجمه د. حسين مؤنس
- ١٤ - نفع الطيب للمقرى - تحقيق احمد الرفاعى
- ١٥ - المغرب فى حلى المغرب تحقيق شوقى ضيف
- ١٦ - وفيات الاعيان لابن حلكان
- ١٧ - ابن الفارض سلطان العاشقين د. محمد مصطفى حلمى
- ١٨ - الحب الالهى فى التصوف الاسلامى د. محمد مصطفى حلمى
- ١٩ - التصوف فى الشعر العربى د. عبد الحكيم حسان
- ٢٠ - الادب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى د. على صافى حسين
- ٢١ - بين التصوف والادب محمد ابراهيم الجيوشى
- ٢٢ - ابو الحسن الشاذلى د. عبد الحليم محمود
- ٢٣ - فى الادب الاندلسى د. جودت الركابى
- ٢٤ - رابطة العذوية والحياة طه عبد الباقي سرور
- الروحية فى الاسلام طه عبد الباقي سرور
- ٢٥ - اعلام النصوص الاسلامى د. زكى مبادك
- ٢٦ - التصوف الاسلامى فى الادب والاخلاق د. ابو الوفا التفنارائى
- ٢٧ - ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه عبد الكريم الجبلى
- ٢٨ - الانسان الكامل لابن عباد الرندى
- ٢٩ - شرح الرندى على حكم ابن عطاء الله

لابن عجيبة الحسنى	٣٥ - إيقاف الهم على شرح الحكم
د. أحمد الشرباصى	٣٦ - التصوف عند المستشرقين ...
الرافى	٣٧ - وحى القلم
لبروكلمان	٣٨ - تاريخ الأدب العربى
لللاباذى	٣٩ - التصوف على مذهب أهل التصوف
للشيخ حسن رفوان	٤٠ - مطهرة النفوس ودوض القلوب المستعطب
للشمرى	٤١ - الرسالة القشيرية
للعمري	٤٢ - حياة الحيوان الكبرى ...
سلوت للمرفنى	٤٣ - فتح الرسول
محمد بها الدين البيطار	٤٤ - تفسير الكشاف للزمخشري
	٤٥ - شرح الصلوات الاندلسية ...
	٤٦ - دائرة المعارف الاسلامية ..
	٤٧ - دائرة المعارف البريطانية ...
	٤٨ - دائرة معارف البستانى ...
	٤٩ - دائرة معارف الشعب ...
	٥٠ - الموسوعة العربية الميسرة ...
	٥١ - مجلة منبر الاسلام

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٩
البيئة والعصر	١٥
نسبه ومولده ونشأته	٢٣
اقباله على طلب العلم ، وشيوخه في طلبه ..	٣١
سلوكه الطريق الصوفى ورحلاته فى ذلك	٤٣
أخلاقه	٧٩
ابن عربى الأديب ..	٨٧
ابن عربى الصوفى	١١١
مجاهدة وأذواق ومعارف	١٢٧
ابن عربى بين أنصاره وخصومه	١٥٥
آثار ابن عربى	١٧٥
خاتمة	٢٠٥
المصادر	٢٠٧

رقم الايداع ٨٦/١٧٠٩

الترقيم الدولى ٠ - ٨٦٥ - ٠١ - ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

بتحدث هذا الكتاب - وهذه هي الطبعة الثانية منه - عن
شخصية فريدة عاشت بين منتصفى القرنين السادس والسابع
المجريين - وبلغت أقصى ما يمكن أن يبلغه إنسان من الكمال
الروحي والعلمي والخلقى .
وقد ترك الشيخ الأكبر أثره القوى فى حياة الناس وعقولهم
بسلوكه الطيب وبما خلفه من مئات الكتب التى تشهد بسعة
المعرفة وغزارة العلم وروعة المشاهدات والفيوضات التى
أفاضها الله على قلبه
ومن أهم هذه الكتب الفتوحات الملكية